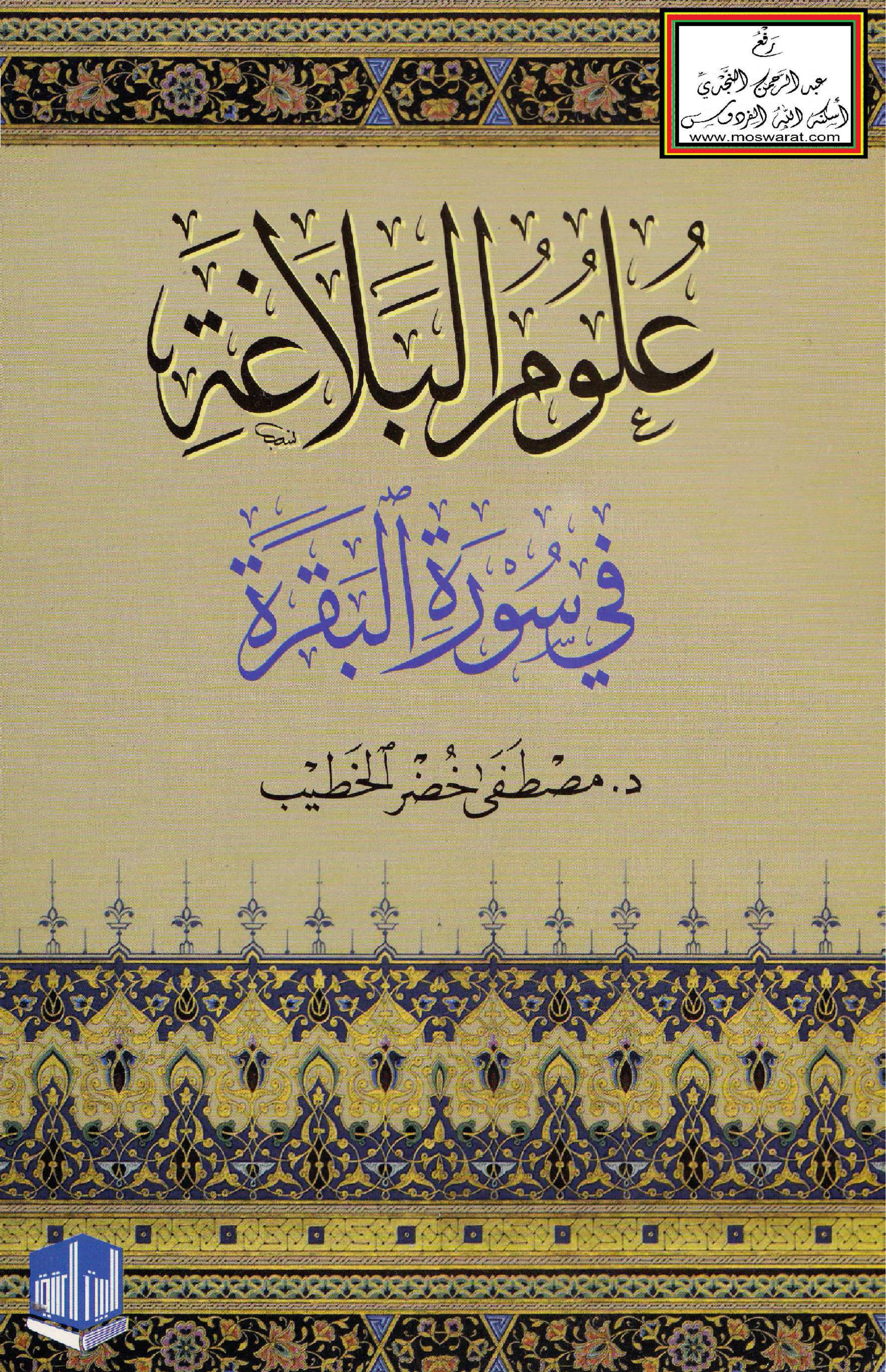
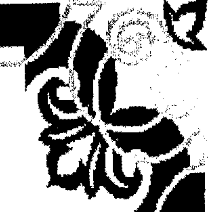


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
علوم البلاغة
في سورة البقرة
د. مصطفى خضر الخطيب


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

# علوم البلاغة في سورة البقرة

د. مصطفى خضر الخطيب

الطبعة الأولى
٢٠٠٩

دار البيت العتيق للنشر والتوزيع
عمان – الأردن
تلفاكس: ٤٦٥٨٩٩٠




المملكة الاردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٩/٢/٣٩١)

٢٢٥,٣

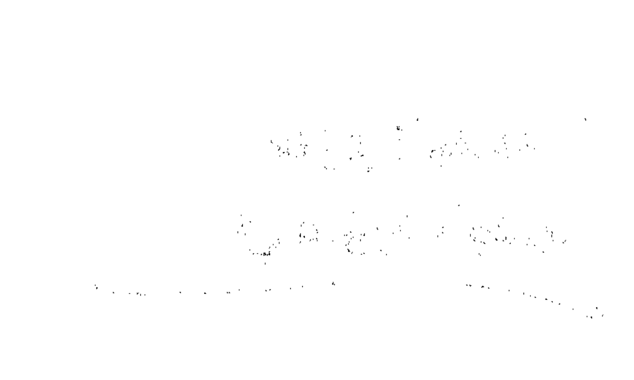
الخطيب ، مصطفى خضر
علوم البلاغة في سورة البقرة / مصطفى خضر
الخطيب.ــــ عمان : المؤلف،٢٠٠٩ .
(     ) ص.

ر.أز : ( ٣٩١/ ٢ / ٢٠٠٩ ).

الواصفات: / القرآن / إعجاز القرآن / / سور القرآن /

* اعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة و التصنيف الاولية
* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه
و لا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية او جهة حكومية اخرى

# علوم البلاغة
# في سورة البقرة



# تنويه

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من بعث رحمة وهدى ونوراً للعالمين، محمد بن عبدالله وعلى آله وأصحابه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد،

فسيبقى القرآن العظيم المنبع الذي لا ينضب والنور الذي لا ينطفيء والبحر الذي يزخر بكل كنوز الحقيقة، يمد الناس بنوره، ويبهرهم كلما حاولوا سبر أغواره والغوص في أعماقه للوقوف على أسراره، والكشف عن درره.

هذا الكتاب المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، في كلماته دلائل إعجازه، وفي سطوره آيات كماله وجلاله، وهو نبراس هداية ومنة ورحمة، يتحدى الخلائق بكلمه، ويبز العقول بحكمه لأنه من لدن عزيز حكيم.

**إني وإن كنت فيما جئت معتمداً ... علـــى جهابذة في علمهم بهروا**
**وأسبغوا نعمة العرفان في خلف ... لن يبلغوا شأوهم يوماً وإن فطروا**
**على فتاتهم اقتاتت معارفنـــا ... وللمـــت من بقايا فضلهم درر**
**ألوذ من غير ذم بالألى ســبقوا ... أذمّهم راية القرآن تنتشـــــر[1]**
**أرى شفيعي إلى الترحال نحوهم ... هيام روح لعفــــو الله تفتقر**

**د. مصطفى خضر الخطيب**

---

(١) أذمه: أجاره وأخذه تحت حمايته.






# التمهيد

لقد مرت الدراسات البلاغية بمراحل متعددة، أضفت رحلتها الطويلة هذه على حدودها ومعالمها وتسمياتها تغييرات كثيرة، نظراً لتداخل موضوعاتها، وتشابك صورها في نشأتها الأولى. وقد تبلورت أخيراً بجهود رجال أدلى كل بدلوه بقدر، وساهموا بتفاوت في مَسيرتها الطويلة، فظلت صورتها متأرجحة في أذهان الناشئة.

ولعل هذا البحث يكشف لهم بعض اللبس الذي طرأ ، وينير لهم معالم دروبهم في تتبع تطورها، إلى أن استقرت في علوم ثلاثة: المعاني والبيان والبديع، ويبين لهم بإيجاز جهود رجالاتها ليأخذ كل منهم حقه ببيان فضله وأثره في مدرسته ومنهجه.

ولقد حفلت هذه السورة الكريمة بأنواع فريدة وألوان جميلة من البيان ففيها المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه ومن علم المعاني نرى الإيجاز والإطناب والمساواة وفيها التعريف والتنكير والتقديم والتأخير وفيها الفصل والوصل والذكر والحذف وغير ذلك من الفنون البلاغية لعلم المعاني.

وسنقف في هذا البحث إن شاء الله على أسرار هذه العلوم باستجلائها ودراستها، إذ ليس الهدف المسح الشامل والاستقصاء الكامل لكل أنواع البلاغة، بل الوقوف على نماذج وأنماط متنوعة منها، متميزة في وهجها الجمالي رغم أن اختيار لؤلؤة من بين أخواتها أمر عسير، فكلها قد حباها الله بجلال القدر وموفور القيمة، وأسبغ عليها من أسرار البيان ما يأسر العقول ويمتع الأذواق والأرواح. وبعد،

لعلني استطعت في هذا البحث المتواضع من خلال الغوص في أعماق هذه السورة الكريمة استخراج بعض لآلئها من كنوزها الكثيرة التي لا زالت تزخر بعبق الذكر الحكيم المعجز في شتى الميادين، تنتظر غواصين أمهر يفاجئون الناس بجواهر أندر.

وكأي عمل إنساني تبقى محاولتي ناقصة يشوبها كثير من العجز، وحسبي أنني حاولت، وأرجو الله تعالى أن ينفع به عباده، ويسجله في ميزان حسناتي خالصاً لوجهه الكريم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

**د. مصطفى خضر الخطيب**

لعل من المفيد استعراض المراحل التي مرت بها العلوم البلاغية باختصار منذ نشأتها إلى أن اكتملت خصائصها، ووضحت معالمها، واستقل كل علم منها محدداً سماته الخاصة، وحدوده المميزة، على يد مجموعة من العلماء الذين ساهموا في ذلك التطور عبر العصور المختلفه، بدءاً من الأقدم ثم الذي يليه[1].

**أ- ابن المقفع ( ت ١٤٢هـ):** وضع قاعدة حسن الاستهلال في النثر، وذلك بأن يشير الكاتب بما يستهل به كلامه إلى مقصده وغايته. ووضع قاعدة «رد الإعجاز على ما تقدمها» في الشعر، ويلخص هذه القاعدة قوله «إن خير أبيات الشعر ما دل صدره على قافيته» كما أنه جعل لكل من الإيجاز والإطناب مواضع تناسبه، وتوجب استخدامه دون غيره، تبعاً لمقتضى الحال «لكل مقام مقال».

**ب- بشار بن برد ( ت ١٦٧هـ):** دار حول التشبيه دون التعرض لأنواعه وتعريفه، فقد حاول محاكاة امريء القيس في ذلك، قال : «لم أزل منذ سمعت بيت امريء القيس يشبه شيئين بشيئين في بيت واحد حيث يقول:

**كأن قلوب الطير رطباً ويابساً ... لدى وكرها العناب والحشف البالي**

أعمل نفسي في تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد حيث قلت

**كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه**

لم يتعرض بشار لنوع التشبيه، ولم يذكر التشبيه التمثيلي، واقتصر الأمر على قوله «شيئين بشيئين».

ج- سيبويه (ت ١٨٠هـ) وكتابه «الكتاب».

---

(١ ) من كتاب المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبدالفتاح لاشين، دار المعارف، ط ٣، ١٩٧٨، بتصرف

والبلاغة مختلطة عنده، فقد ذكر التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير والحذف، مما عرف من الخصائص الأسلوبية لعلم المعاني فيما بعد، وذلك في سياق حديثه عن مسائل النحو وعلى سبيل المثال، في سياق حديثه عن تقديم المفعول على الفاعل يقول: «كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم» ويعلق على قول الخنساء:

**ترعى إذا نسيت حتى إذا ذكرت فإنما هي إقبال وإدبار**

قال: جعلت الإقبال والإدبار مجازاً على سعة الكلام.

وتحدث عن التشبيه ولم يعرفه في باب (ما يكون من الأسماء صفة لمفرد وليس بفاعل ولا صفة) قال: «تشبه الفاعل مثل: مررت برجل مثل الأسد، إذا كنت تشبهه».

**د- أبو عبيدة ( ت ٢٠٧هـ):** وكتابه (مجاز القرآن)، ألفه سنة ١٨٨هـ، بسبب آية استغلقت على ابراهيم بن اسماعيل الكاتب في فهم التشبيه فيها، وذلك في مجلس الفضل بن الربيع، جاء تعريفه للمجاز أعم مما حدده علماء البلاغة لكلمة المجاز فيما بعد، فهو لا يريد بالمجاز مقابلة الحقيقة، وإنما يعنى به التفسير والطرق التي يسلكها القرآن في التعبير. فقد كان يشرح الآية ثم يتلوها بشاهد في معناها، وطريقة استعمالها في كلام العرب الفصيح ومن الشعر، ويكشف الصلة بين أسلوب القرآن وأساليب العرب وفنونهم.

**هـ- الفرّاء ( ت ٢٠٧هـ):** وكتابه معاني القرآن يغلب عليه الطابع النحوي لأنه كان إمام النحويين الكوفيين في عصره، تعرض للتشبيه في بعض آيات القرآن الكريم، وتكلم عن المجاز بمعناه اللغوي كما في «مجاز القرآن»، وأشار إلى الإستعارة دون أن يعرفها في قوله تعالى «وإنهما لبإمام مبين» قال

«جعل الطريق إماماً لأنه يؤم»[1] وتعرض للكناية في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ ، فقال السر في هذا الموضع النكاح. أما في الموسيقى، فقد فاق أبا عبيدة، وتحدث عن النسق الصوتي، والترابط بين الكلام، وانسجام النغم، وتوافق الفواصل في أواخر الآيات، ففي قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ يرى أن هذه التثنية بمعنى الإفراد مراعاة للنظم.

**و- الجاحظ ( ت ٢٥٥هـ):** بحث في كتابيه «البيان والتبيين» و «الحيوان» بعض الصور البيانية في القرآن الكريم على النهج الاعتزالي (مذهب المعتزلة)،حيث يخالف أهل الظاهر وأصحاب الحديث واللغويين في المجاز، ويتهمهم بالقصور وضيق الأفق في فهم الآيات القرآنية وأساليبها الدقيقة.

فمثلاً في قوله ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ فالعسل في رأيه ليس شراباً، وإنما هو شيء، يحول بالماء شراباً ونبيذاً، وسماه شراباً لأن الشراب يجيء منه.

ويطلق الجاحظ «المجاز» على كل الصور البيانية عند تناوله لكثير من نصوص القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾، وهذا مجاز آخر.

وبخصوص التشبيه، فقد تعرض أكثر من مرة للآية الكريمة ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾.

**ز- ابن قتيبة الدنيوري ( ت ٢٧٦هـ):** وكتابه (مشكل القرآن). قال ابن تيمية: «هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة».

---

(١) معاني القفرآن، الفراء ج ٢/ ٥٩١.

عرض ابن قتيبة صوراً من المجاز في القرآن الكريم، وعرف الاستعارة ، ومثل تحت هذا الاسم بأمثلة تنطوي على ما يسمى بالاستعارة والمجاز المرسل والكناية والتشبيه والمبالغة والمشاكلة، وتكلم عن الإيجاز بنوعيه إيجاز الحذف وإيجاز القصر، مثل «الحج أشهر معلومات» ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ البقرة:١٩٧ أي وقته. أما الكناية فكان واضحاً في الدلالة عليها، وقد رددت كتب البلاغة أمثلته، قال: «فلان طويل النجاد»، والنجاد حمائل السيف، وإنما يريدون أنه طويل القامة، «وفلان كثير الرماد» إنما يريدون أنه كثير الضيافة.

**ح- المبرد ( ت ٢٨٥هـ):** وكتابه الكامل.

عقد للتشبيه بأنواعه فصلاً كاملاً – وذكر من أنواعه: المفرط والمصيب والمقلوب وبعيد التعقيد اللفظي والمعنوي. فاللفظي كقوله: «أبو أمه حي أبوه يقاربه» والمعنوي مثل له بقول روح بن حاتم وهو واقف بالشمس على باب المنصور: «ليطول وقوفي في الظل». وقد وضح أضرب الخبر، عندما قال له الفيلسوف الكندي يوماً: إني أجد في كلام العرب حشواً، يقولون: عبدالله قائم، وإن عبدالله قائم، وإن عبدالله لقائم والمعنى واحد. فأجابه المبرد: بل المعاني مختلفة: فعبدالله قائم إخبار عن قيامه، وإن عبدالله قائم جواب عن سؤال، وإن عبدالله لقائم جواب عن إنكار منكر.

وبذلك كان له الفضل في تحديد أضرب الخبر (الابتدائي والطلبي والإنكاري) تبعاً لحالة المخاطب ودرجة اقتناعه أو شكه في الكلام الملقى إليه.

**ط- ابن المعتز ( ت ٢٩٦هـ):** وكتابه (البديع)، ألفه سنة ٢٧٤هـ، وذكر فيه أن البديع موجود في كلام الجاهليين والإسلاميين، وفي القرآن الكريم والحديث الشريف، ولم يكن حكراً على المحدثين، أو ابتكارا منهم، لكن الأوائل استخدموه بقصد فأجادوا، وأسرف المحدثون في استخدامه فجاء مملاً ممجوجاً»[١].

قال ابن المعتز «ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن سلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثير في أشعارهم، فعرف في زمانهم»[٢].

لقد قسم ابن المعتز علم البديع خمسة أنواع:

الاستعارة، التجنيس، المطابقة، رد الإعجاز على ما تقدمها، المذهب الكلامي، وتحدث عما سماه «محاسن الكلام» في ثلاثة عشر موضعاً مع التمثيل من الشعر، ومن كلام القدماء والمحدثين، وهو أول من ألف في البديع ورسم فنونه» بحيث أصبح إماماً لكل من ألفوا من بعده.

**ي- قدامه بن جعفر ( ت ٣٣٧هـ):** وكتابه (نقد الشعر)، تأثر فيه بالمفكر اليوناني، فجاء مصطبغاً بالطابع المنطقي والفلسفي، وتحدث عما عرف فيما بعد بعلم المعاني، فذكر التتميم والايغال والاشارة والإيجاز والمساواة.

أما علم البيان فتحدث عن التشبيه صوره وأقسامه وذكر الاستعارة والتمثيل والإرداف، وعرف هذه المباحث ومثل لها، وقد عدَّ قدامة وابن المعتز أول المخترعين للبديع والمدونين له، وقد وصف العلوي قدامة بأنه «جواب البلاغة» ونقادها البصير والمهيمن على معانيها، وخريتها الخبير»[٣].

---

(١) أنظر كتاب «الوساطة بين المتني وخصومه» للقاضي الجرجاني في تناوله لبديع ابي تمام

(٢) المعاني في صور أساليب القرآن، د. عبدالفتاح لاشين، دار المعارف ١٩٧٨، ط٣

(٣) الخريت: جمع خراريت وخرارت، الدليل الحاذق الذي يهتدي الى أخرات المفاوز وهي مضايقها وطرقها الخفية، المنجد في اللغة والاعلام، مادة (خرت)

**ك- أبو هلال العسكري ( ت ٣٩٥هـ):** وقد ألف كتابه (الصناعتين) سنة ٣٩٣ ونوه في مقدمته بعلم البلاغة، وأنه ضروري لفهم الإعجاز، وأثنى على كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ إلا أنه نقده لعدم ترتيبه، واجتهد أن يجمع أطراف الموضوع في بحث منظم: فقد وضع مقاييس جيد الكلام ورديئه، وما عرفه العرب من ظواهر بلاغية منذ زمن متقدم مثل: الإيجاز والإطناب والتشبيه وحسن الأخذ وحسن التأليف، وشرح أبواب البديع التي جمع ابن المعتز وقدامة طائفة منها، وزاد عليها أبو هلال العسكري أبواباً أخرى، واستقصى صور البيان التي تعرض لها البلاغيون والنقاد حتى عصره، مع التمثيل والتحليل لبعضها.

**ل- القاضي عبدالجبار ( ت ٤١٥هـ):** ألف سبعين كتاباً في الثقافة الإسلامية ضاع أكثرها، ومن مؤلفاته الباقية والتي نثرت فيها الملاحظات البلاغية:

متشابه القران، تنزيه القرآن عن المطاعن، الجزء السادس عشر من «المغني» الخاص بإعجاز القرآن، المتشابه والتنزيه، وكان الغرض من تأليفهما الدفاع عن الاسلام والرد على الطاعنين على القرآن، والرغبة في نشر مذهب المعتزلة واتجاههم في التفسير والتأويل، وإثبات أن القرآن الكريم موافق لأدلة العقول، وتأويل جميع الظواهر التي يتعلق بها خصومهم.

رأى القاضي عبدالجبار أن الإعجاز في القرآن ليس في اللفظة المفردة، وإنما يكون في ضم الكلمة إلى أختها، وملاحظة إعرابها وموضعها من الجملة، وهو بذلك مهد للقاضي عبد القاهر الجرجاني السبيل لنظرية النظم التي أقامها على مبادىء النحو.

**م- عبد القاهر الجرجاني ( ت ٤٧١هـ):** لم يلتق بأحد علماء العربية، لأنه لم يخرج من جرجان، وهو أديب ناقد، ذو ثقافة واسعة، ودراية بدقائق النظم، وأسرار المعاني، ومن مؤلفاته: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، وهما من أمهات الكتب العربية، وقد سبق الإمام محمد عبده غيره في تدريسهما في الأزهر، وقد ذكر الجرجاني في كتابه «أسرار البلاغة» الاستعارة وأقسامها والتشبيه والتمثيل، وفرق بين الاستعارة والتشبيه البليغ، وذكر حدّي الحقيقة والمجاز.

في كتابه «دلائل الإعجاز بحث النظم من جميع وجوهه، فقد رد على أصحاب اللفظ بقوله: «فأطلقوا كلاماً كما ترى يوهم من سمعه أن المزية في حاق اللفظ»، وفي هذا القول يرد على الجاحظ زعيم أصحاب اللفظ. وبين الجرجاني خطأ اللفظ وحده فقال : «وهل يقع في وهم وإن جهد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان ما تقعان فيه من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حروف هذه أخف ومزاجها أحسن» وبين أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي الفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلمة مفردة، وأن الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظ بمعنى التي تليها، وقد بين فضل علم الكلام بقوله: «ثم إنك لا ترى علما هو أرسخ اصلاً، وأبسق فرعاً، وأحلى جنى... من علم البيان»[١].

(١ ) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ١٤،١٣، تصحيح وشرح وتعليق أحمد مصطفى المراغي، ط٢، المكتبه المحمودية، القاهرة.

وجعل عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم النحو أساس البلاغة والفصاحة، وأن الناس قد جهلوا أمره، فظنوه شيئاً غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم.

وذكر التقديم والتأخير، والذكر والحذف والقصر والفصل والوصل، وجاء من بعده من البلاغيين فكانوا عالة عليه وعلى كتابيه.

**ن- الزمخشري ( ت ٥٣٨هـ):** وكتابه «الكشاف» كان إمام عصره، ونهج نهج القاضي عبد الجبار في اتباعه مذهب المعتزلة، ووجه الشبه بينه وبين الإمام عبدالقاهر أن كليهما أديب ومفسر ومتكلم لكن الإمام سني شافعي، والزمخشري حنفي معتزلي كان من أبرز البلاغيين، وبحوثه متناثرة في تفسيره، تناول فيه روعة البيان وإعجاز القرآن.

وبعد الزمخشري توقفت عجلة النشاط في البحث البلاغي واتجه اتجاهين: فلسفي وأدبي.

## الاتجاه الفلسفي والمنطقي:

اهتم بالقواعد والتعريفات، وأهمل تحليل النصوص، وحدث هذا في شرق العالم الإسلامي، حيث يعيش غير العرب المسلمين، ممن ينقصهم الذوق الفطري العربي، ومن أشهر أصحاب الاتجاه الفلسفي:

**الرازي** (ت ٦٠٦) وكتابه «نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز» وهو ملخص من كتاب عبد القاهر، وهو أول من قعّد البلاغة، وكان الصلة بين البلاغة الأدبية والبلاغة، ذات القواعد والقوانين.

رتب الرازي علوم البلاغة في تقنين علمي هو الأول من نوعه، وحول البلاغة إلى قوانين وتعريفات، وبذلك فقد قضى على الروح الأدبية في كتابي

الجرجاني، وقد عرف الاستعارة، وبين القيود، وأخرج المحترزات، وقلل من الأمثلة، ولم يتناولها بالشرح والتحليل، كما فعل الإمام عبد القاهر، فهو حلقة وصل بين بلاغة الإمام وبلاغة السكاكي، وهو قليل التطرق للمباحث البلاغية في تفسيره للقرآن الكريم «مفاتيح الغيب» إذا قارناه بالزمخشري، ولكنه حين يتطرق لها يعرضها في قوة ووضوح.

**السكاكي:** (ت ٦٢٦) وكتابه «مفتاح العلوم»، وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام: الأول لعلم الصرف، والثاني لعلم النحو، والثالث لعلم المعاني والبيان، وملحق لدراسة المحسنات اللفظية والمعنوية.

وشهرة السكاكي بالقسم الثالث، وقد أعطى لعلم البلاغة الصيغة النهائية التي اجترت دراسة وشرحاً.

اعتمد السكاكي على كتب الفخر الرازي وكتابي عبد القاهر والكشاف وهو أول من قسم البلاغة إلى علمين المعاني والبيان، وحددهما بحدود مضبوطة، ولم يجعل البديع علماً مستقلاً، بل جعله لاحقاً بها.

**مدرسة السكاكي البلاغية:** هم العلماء الذين ساروا على نهج السكاكي، ولهم شروح أو تلخيصات على كتابه «المفتاح» ومنهم:

**بدر الدين بن مالك:** (ت ٦٨٦هـ) وكتابه «المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع» اعتبر المحسنات من توابع العلمين، إلا أنه جعلها علماً مستقلاً سماه «علم البديع»، وبذلك مهد لأن تصبح البلاغة متضمنة ثلاثة علوم.

**الخطيب القزويني:** (ت ٧٣٩هـ)، جاءت شهرته من كتابه«تلخيص المفتاح» و«الإيضاح».

شراح التلخيص:

١- **بهاء الدين السبكي** (ت ٧٧٣هـ) اشتغل بالتدريس والقضاء في القاهرة ودمشق، وصنف في البلاغة وغيرها، ومن أهم مؤلفاته البلاغية «عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح».

٢- **سعد الدين التفتازاني** (ت ٧٩١هـ)، برع في الفلسفة والفقه والتفسير والنحو واللغة، وله مصنفات كثيرة، وقد شرح التلخيص شرحين «المطول» و«المختصر».

ويعدّ «المطول» خير شروح التلخيص، وممن اعترض عليه الشريف الجرجاني (ت٨١٦) في كتابه «حاشية على المطول»، كما وضع عبد الحكيم شمس الدين السيالكوتي الهندي (ت ١٠٦٧هـ) حاشية على المطول.

أما « المختصر » للتفتازاني، فقد كتب الشيخ محمد الدسوقي المتوفى (١٢٣٠هـ) حاشية عليه.

٣- **عصام الدين بن عربشاه الاسنراييني:** ولد بسمرقند في منتصف القرن العاشر الهجري، وشرح التلخيص بكتاب سماه «المطول».

٤- **ابن يعقوب المغربي** (ت ١١١٠هـ) شرح التلخيص بكتاب سماه «مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح».

٥- **جلال الدين السيوطي:** (٩١١هـ) ، وضع أرجوزة تختصر متن التلخيص وسماه «الجمان»، ووضع عليها شرحاً سماه «عقود الجمان».

**جمع الشروح**: جمعت الأول والثاني والرابع «عروس الأفراح للسبكي، ومختصر التفتازاني، ومواهب الفتاح للمغربي في كتاب، ووضع بهامشه كتاب «الإيضاح» للخطيب القزويني، وحاشية الدسوقي على شرح المختصر

للتفتازاني، فضمت تلك الشروح الخمسة في أربعة مجلدات سميت «شروح التلخيص».

**الاتجاه الأدبي:** انتشر في المناطق العربية حيث لا حاجة للقواعد حاجة الناس إليها في المناطق غير العربية، ومن أبرز علماء هذا الاتجاه:

١- **ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) وكتابه** «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» اعتمد على كتابي «الموازنة للآمدي» و «سر الفصاحة» للخفاجي باعترافه، لكن كتابه خليط من كتب كثير من العلماء الذين سبقوه. وادعى أنه لم يطلع على كتابي عبد القادر، لكن عبد القادر سبقه في أن اللفظة لا تحسن من حيث هي لفظة بذاتها، وإنما هي التي تليها، بدليل حسنها في موضع، وقبحها في آخر.

وقد استشهد ابن الأثير بالأمثلة نفسها التي ذكرها عبد القاهر، كاستخدامه لفظ «الأخدع»، فقد وردت هذه الكلمة في بيتين، وكانت حسنة في أحدهما، وثقيلة مستقبحة في الآخر[1] ، وكلمة «البيان» عند ابن الأثير تشمل علمي المعاني والبديع، وقد تتبع في كتابه أصل الفكره منذ الجاحظ.

٢- ابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)، وكتابه «تحرير التحبير» ذكر فيه مئة وخمسة وعشرين محسناً بديعياً، وفي كتابه «بديع القرآن» ذكر مائة وتسعة أنواع مما ورد في القرآن الكريم، وقد جمع كل مباحث البلاغة تحت اسم «البديع»، واعتمد على دراسة النصوص القرآنية والأدبية لكشف جمالها، ولم يحفل بالتعريفات البلاغية.

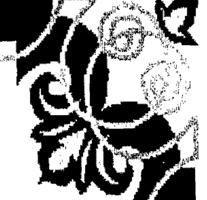
---

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ١٣و١٤، تصحيح وشرح وتعليق الأستاذ أحمد مصطفى المراغي، ط ٢، المكتبة المحمودية، القاهرة.

٣- يحيى ابن حمزة العلوي(ت ٧٠٩هـ) وكتابه «الطراز» ذكر بعض المباحث البلاغية، وتعرض لإعجاز القرآن، وكتابه خليط مما أتى به ابن الأثير والفخر الرازي.

وهكذا رأينا أن علماء البلاغة بعد الرازي والسكاكي لم يأتوا بجديد، بل لم يستطيعوا المحافظة على روائها في زمن عبد القاهر والزمخشري فتوقفت عجلة الإبداع، ودارت الشروح والتلخيصات حول نفسها تجتر ما أتى به المبدعون، وظل الأمر كذلك إلى أن نشطت حركة التأليف، وازدهرت النهضة الأدبية واستردت البلاغة عافيتها، وبدأت تعرض في سياق سهل بعد أن تخلص من تعقيدات وجمود التقسيمات المنطقية ، وحدود ولمسات النظرة الفلسفية.

ومهما يكن من أمر فإن مدرسة السكاكي لها الفضل في تحديد سبل النقد للتمييز بين الحسن والقبيح، تمييزاً يتراوح بين المقياس العلمي، والإبداع الفني، لا يطغى أحدهما على الآخر.

# علوم البلاغة
# في سورة البقرة

## ١- علم البيان في سورة البقرة




# المجاز

قسم البلاغيون المجاز قسمين مجازاً عقلياً ومجازاً لغوياً، وجعلوا الأول في إسناد الفعل أو ما يشبهه إلى غير فاعله الأصيل لملابسته له. وحكمة هذا الإسناد حيناً قيام ما أسند إليه الفعل بدور رئيس في الجملة، وقد يكون هو الركن الذي لا يتم العمل بدونه.

أما المجاز اللغوي وهو استعمال اللفظ في غير ما وضع له أولاً، لصلة بين المعنيين غير صلة التشابه.

يتعرض الدكتور أحمد بدوي في كتابه «من بلاغة القرآن» إلى مبالغة بعض الباحثين في المجاز بقوله:

«فقد وجدت كثيراً ممن تعرضوا لدراسته في القرآن الكريم، فقد مضوا يلتمسون أمثلته ويبوبونه، ويذكرون أقساماً كثيرة له حتى بلغوا من ذلك حد التفاهة ومخالفة الذوق اللغوي فوجدوا مثلاً في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ وجدوا مجازاً، لأن الشهر اسم لثلاثين ليلة، وقد أريد جزء منه، إلى غير ذلك من أمثلة يطول بي وجه إحصائها، وبيان ما فيها من تكلف وتفاهة، ولو سرنا على منهجهم لوجدنا في كل ما ننطق به مجازاً، وليس في ذلك كبير نفع ما دامت الكلمة لا تسترعي انتباه القاريء، ولا تستوقفه لتبين السر في استخدامها»[1]

لكن الدكتور بدوي يستدرك قوله في هجومه على أولئك الذين بالغوا في التقسيم والتبويب والتأويل للمجاز فيقول:

---

(١) من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي، ص ٢٢٤، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ط ٣، ١٩٥٠، القاهرة.

«لكنك لا تعدم في بعض الأحيان روعة فيما عدّوه من ألوان هذا المجاز، كما في قوله تعالى ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ البقرة:١٩

وقد ظهرت لصور المجاز العقلي أوليات عند سيبويه، فقد قال: «مطر قومك الليل والنهار»، وتحدث أبو عبيدة عن المجاز الذي في موضع الفاعل، والمعنى أنه مفعول، وتحدث الفراء عن صور المجاز العقلي فقال في قوله تعالى ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ يقول: «ربما يقول القائل كيف تربح التجارة وإنما يربح الرجل التاجر؟ وذلك من كلام العرب: ربح بيعك، وخسر بيعك، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ وإنما العزيمة للرجل [1]. وقد ردد الطبري المعنى نفسه عند تفسيره لهذه الآية [2] منسوباً لأبي جعفر الرؤاسي (ت١٧٥هـ) أستاذ الفراء في ذلك وقد تأثر بأستاذه، لكن الفراء كان أكثر تفصيلاً للمجاز من سابقيه. وقال المبرد: ليلة مزؤودة، أي ذات زؤد وهو الفزع، وجعلها ذات فزع لأنها يفزع فيها. وقال جرير «فنام ليلي وتجلى همي» [3]. وقال ابن فارس (ت ٣٩٢ هـ) «ومن سنن العرب الحذف والاختصار» ومنه قولهم: «واسأل القرية» أراد أهلها.

وابن جني (ت ٣٩٢هـ) تعرض للمجاز العقلي، فتحدث عن الوصف بالمصدر فقال «إن أصبح ماؤكم غوراً» أي غائراً، ونحو قول الخنساء: «فإنما هي إقبال وإدبار»، يقول ابن جني، إنما ساغ ذلك لأنه أراد المبالغة، وأن يجعله هو نفس الحدث، لكثرة ذلك منه مثل: هذا رجل زور وصوم [4].

---

(١) معاني القرآن، ج ١/ ١٤

(٢) تفسير الطبري، ج ١/ ٣١٦، ط دار المعارف

(٣) الكامل للمبرد، ج ٢/ ٢٤٨.

(٤) الخصائص، ابن جني، ج ٣/ ١٨٩

وجاء القاضي عبد الجبار فكانت عقيدته الاعتزالية في تأويله الكثير في المجاز في الآيات التي يدل ظاهرها على إسناد الأفعال إلى الله سبحانه وتعالى، وذلك خلاف مذهبه، وجعل الإسناد فيها حقيقة، إلى غير ذلك، وإنما أسند الفعل إليه تعالى لكونه سبباً فيه أو عوناً عليه، وسهل السبيل إليه عن طريق ما سماه المتأخرون فيما بعد بالمجاز العقلي.

قالوا: فقد قال تعالى﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ البقرة: ٢٦ ، وذلك يدل على أنه تعالى يضل ويهدي، لا كما تقولون بأنه تعالى لا يجوز عليه ذلك ويقول في الجواب مشيراً إلى المجاز: «إنهم لما ضلوا عنده (أي عند ضربه المثل)، جاز أن يضاف إليه نفسه، فكذلك أضاف هذا الضلال إلى نفسه لما كفروا بالمثل عند نزوله. ويعيد الجواب في كتاب آخر فيقول موجهاً الآية وجهة المجاز «إنه أضاف الضلال الى نفسه لما ضلوا عند ضربه المثل على مجاز الكلام».

وبهذا نرى أن القاضي عبد الجبار طور البحث في المجاز العقلي تطويراً كبيراً فلم يسبقه في ذلك التفصيل سابق، وكل من أتى بعده فهو عيال عليه، آخذ منه، فقد أفاد منه الحاكم الجشمي [(١)].

والقاضي عبد الجبار كالمؤسس الأول للمجاز العقلي، لكن طه حسين يعتبر عبد القاهر الجرجاني هو الذي اكتشف المجاز العقلي» [(٢)].

---

(١ ) هو الحاكم أبو سعيد بن محمد الجشمي أستاذ الزمخشري، المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، ص ١٤٠.

(٢ ) تمهيد في البيان العربي، طه حسين، ص ٢٩.

ويرى الدكتور عبدالفتاح لاشين أنه اقتصر على التهذيب والتحقق والشواهد وإكمال ما بدأه السابقون، وأنه عقد فصلاً فرق فيه بين المجاز اللغوي والمجاز العقلي. والأرجح أن نيفا وخمسين عاماً بين وفاة الرجلين يدل على سبق القاضي عبد الجبار في تأسيس المجاز العقلي والتمهيد لنظرية النظم التي لمع فيها الجرجاني، وتفرد بمذهب لا ينازعه فيه منازع.

## من المجاز في سورة البقرة:

المجاز في التركيب (مجاز الإسناد والمجاز العقلي)

ومنه ما كان طرفاه مجازين نحو قوله تعالى ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾ البقرة:١٦، أي ما ربحوا فيها، وإطلاق الربح والتجارة هنا مجاز، حيث شبه الأعمال بالتجارة، وشبه النتيجة بالربح أو الخسارة، ثم حذف المشبه واستعار له المشبه به.

المجاز في المفرد أو المجاز اللغوي: هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له، ومنه:

أ- إطلاق اسم الجزء على الكل نحو: ﴿ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ ﴾ البقرة:١٤٤ أي ذواتكم.

ب- إطلاق الكل على الجزء نحو قوله تعالى: ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم ﴾ البقرة:١٩ أي أناملهم، والتعبير عنها بالأصابع إشارة إلى إدخالها على غير المعتاد مبالغة من الفرار فكأنما جعلوا فيها الأصابع.

ج- إطلاق السبب على المسبب نحو: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ البقرة:٣٦ فإن المخرج في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى، وسبب ذلك الأكل

من الشجرة، وسبب الأكل وسوسة الشيطان، فألحق بذلك نسبة الفعل الى سبب السبب.

د- إطلاق الفعل والمراد مشارفته ومقاربته نحو: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ البقرة: ٢٣١ أي قاربن بلوغ الأجل، أي انقضاء العدة، لأن الإمساك لا يكون بعده.

هـ- إقامة صيغة مكان أخرى. مثل إطلاق المصدر على المفعول نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ البقرة: ٢٥٥ أي معلومه.

ونرى في هذه السورة الكريمة أنواعاً من المجاز في مواطن متعدد أخرى من:

المجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وعلاقته اعتبار ما يؤول إليه، أي الصائرين إلى التقوى.

وفي قوله تعالى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ البقرة: ٩.

المجاز في الخداع منسوب إليهم لتعاطيهم أنواع المخادعة ظناً منهم أنهم يستطيعون ذلك لصدق نفيه، ولذلك قال: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم﴾ البقرة: ١٩ مجاز مرسل، لأن الإصبع ليست هي التي تجعل في الأذن، فذكر الأصابع وأراد الأنامل، وعلاقته الكلية، والمجاز هنا أبلغ من الحقيقة، ولذلك عدل عنها إليه، وجمع الأصابع لأنه لم يرد إصبعاً معينة، فالحالة حالة دهش وحيرة، فإنه إصبع اتفق لهم أن يسدوا بها آذانهم فعلوا ذلك على غير هدى.

والمجاز المرسل في قوله تعالى ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ البقرة: ٢٥ والعلاقة محليه، هذا إذا كان النهر مجرى الماء كما قال بعض علماء اللغة، أما إذا كان بمعنى الماء في المجرى فلا مجاز فيه.

المجاز المرسل في قوله تعالى ﴿ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ البقرة: ٥٤ ، وعلاقته اعتبار ما يؤول إليه، أي أسلموها للقتل تطهيراً لها، أي لينفذ هذا الحكم الصادر، وهذا أحد الأقوال في القتل، وقيل المراد بقتل الأنفس تذليلها وكبح جماحها، فإن القتل يرد بالمعنى المذكور (التذليل).

المجاز العقلي في إسناد الخشية إلى الحجارة وهو كثير في ألسنة العرب نحو قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ٧٤ .

والمجاز العقلي في إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له لعلاقة مع قرينه مانعه من الإسناد، وهو يدرك بالعقل، ومن أمثلته البديعة في الشعر قول المتنبي:

**كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سناناً**

وقد يلتبس بالاستعارة، والفرق بينهما قصد التشبيه أو عدمه في قوله تعالى: ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ البقرة: ١٦٤، جعل خضرة الأرض ونضرتها وبهجتها، بما يظهره الله تعالى من النبات والأنوار والأزهار وعجائب الصنع حياة لها، فكان ذلك مجازاً ، من حيث جعل ما ليس بحياة حياة[1].

المجاز المرسل في قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ البقرة: ١٤٣. والعلاقة هي المصير

---

(١ ) أسرار البلاغة، عبد القادر الجرجاني، ص ٢٩٦

والمآل، فليس ثمة أسمج ولا أقبح من رؤية الإنسان معكوس الخلقة مخالفاً للمألوف المعتاد [1].

والمجاز المرسل في قوله تعالى ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ البقرة:١٦٦ وعلاقته السببية فإن السبب في الأصل الحبل الذي يرتقى به إلى ما هو عال، ثم أطلق على كل ما يتوصل به إلى شيء مادة كان أم معنى، وقد يكون استعارة تصريحية، فقد شبه الأعمال التي كانوا يمارسونها في الدنيا بالأسباب التي يتشبث بها الإنسان للنجاة، ثم حذف المشبه وأبقى المشبه به، قال زهير بن أبي سلمى:

**ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء يسُلَّمِ**

والمجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ البقرة: ١٧٤.

والمجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾ البقرة: ١٧٧ والعلاقة الجزئية بذكر الجزء وإرادة الكل.

والمجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ البقرة: ١٧٩ ، فقد جعل ما هو تفويت للحياة وذهاب بها ظرفاً لها، إذ القصاص مزجرة قوية عن إقدام الناس على القتل، فارتفع بسببه القتل عن الناس، وارتفاع سبب الموت ديمومة للحياة السابقة [2].

---

(١ ) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش، ج١، دار ابن كثير ١٩٩٤، ط ٤.

(٢ ) إعراب القرآن وبيانه، ج ١، ص ٢٥٤، محيي الدين درويش.

المجاز المرسل في قوله تعالى ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا ﴾ البقرة: ١٨٢ فكلمة خاف جاءت بمعنى الظن والتوقع، والعلاقة في هذا المجاز السببية، لأنه تعبير عن السبب بالمسبب.

المجاز المرسل في قوله تعالى ﴿ تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾البقرة: ١٩٥ المجاز هنا في كلمة (الأيدي)، والمراد بها الأنفس، لأن البطش والحركة يكون بها، فهي مجاز مرسل علاقته الجزئية من إطلاق الجزء وإرادة الكل، أو السببية لأن اليد سبب الحركة كما تقدم.

المجاز العقلي في قوله تعالى ﴿ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾البقرة: ٢٠٠ ، فاسناد الذكر إلى الذكر مستحيل، ولكنه ملابسة له، أصبح كأنه شخص عاقل أجني عنه يقوم به، وجميل قول أبي تمام:

**تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوذها بنغمة طالب**

فقد أسند الجنون إلى مصدره، وذلك بسبب الملابسة الشديدة التي تجعل غير العاقل عاقلاً لشدة وقوعه منه.

المجاز المرسل في قوله تعالى ﴿ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾ البقرة: ٢٣٢ ، فتسمية المطلقين لهن بالأزواج مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان.

المجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ البقرة: ٢٤٣ والمراد مرض الطاعون الذي اجتاحهم، والعلاقة هي اعتبار ما يؤول إليه هذا المرض.

المجاز المرسل في قوله تعالى ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: ٢٢٣

المجاز العقلي في قوله تعالى ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ البقرة:٢٨٣، فقد أسند الإثم إلى القلب، والمقصود الإنسان كله لا قلبه وحده لسر عجيب وهو أن القلب بمثابة الرأس للأعضاء، وهو المضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله، وقد قلد الشعراء هذه البلاغة فقال الشريف الرضي:

**وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب**

ومن المجاز قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾البقرة: ١٩٤، فمعنى «فاعتدوا عليه» أي جازوه على اعتدائه، وقد سوغت هذه السببية (أي مجازاة المعتدي بما يناسبه)، أن يستعمل كلمة (فاعتدوا) مقام كلمة (فجازوه)، وكأن الفاء في كلمة (فاعتدوا)، تشير إلى وجوب سرعة الرد على العدوان. ومما جاء على هذا النحو من أشعار العرب قول عمرو بن كلثوم:

**ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا**[1].

ومن المجاز تسمية المسبب باسم السبب كقوله تعالى ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾، «سمى جزاء الاعتداء اعتداء لأنه مسبب عن الاعتداء»[2].

---

(١) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش، المجلد الأول، دار ابن كثير ١٩٩٤، ط ٤.

(٢) الإيضاح، القزويني، ج ٢، ص ٤٢٨.

# الاستعارة

قصر الأقدمون حديثهم عندما تحدثوا عن الاستعارة في القرآن على ذكر أنواعها، من استعارة محسوس لمحسوس بجامع محسوس أو بجامع عقلي، ومن استعارة محسوس لمعقول، ومن استعارة معقول لمحسوس أو لمعقول ومن استعارة تصريحية و مكنية أو مرشحه أو مجردة إلى غير ذلك من ألوان الاستعارة. وكانوا يحصون ما ورد في القرآن منها فحسب، وكان بعضهم يجريها ولا يزيد، وندر أن يقف بعضهم متأملاً متفحصاً مظاهر الجمال المؤثرة.

ومن هذه المظاهر الجمالية المؤثرة قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾البقرة: ٢٣٧ .

فإنك تشعر في كلمة (عقدة) بهذا الربط القلبي الذي يربط بين قلبي الزوجين. من ذلك قوله تعالى ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ البقرة: ٢٥٠.

فإن ذلك يضفي على النفس الإنسانية الطمأنينة والراحة والهدوء، بما يلقى عليه من نعمة الصبر عند الشدائد والمحن، وان استخدام كلمة (أفرغ)، تشير إلى الدقة القرآنية في اختيار الألفاظ المستعارة الموحية، فهذه الكلمة توحي بالرفق واللين من رحمة الله تعالى، وفي مجال استخدام اللفظة المستعارة الموحية، فهذه الكلمة توحي بالرفق واللين من رحمة الله تعالى، وفي مجال استخدام اللفظة نفسها للعذاب، يستخدم القرآن كلمة (صب)، كقوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾.

ومن الكلمات الموحية بالقوة كلمة (زلزلوا) في قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ

﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ البقرة:٢١٤

وإن هذا الاضطراب النفسي العنيف الذي تؤديه كلمة (زلزلوا) لا تؤديه أية كلمة أخرى مكانها، وتكمل هذه السورة الكريمة رسم الصورة المحسوسة بما يزيدها قوة تمكن لها في النفس كقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ البقرة: ١٦ ، فقد أكمل صورة الشراء بالحديث عن ربح التجارة والاهتداء في تصريف شؤونها. وقد وردت فيها استعارات كثيرة نذكر منها:

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ البقرة : ٧، فقد أسند الختم إلى القلوب وهي استعارة تمثيلية، فقد شبهت قلوبهم في نبوها عن الحق وعدم الإصغاء إليه بحال قلوب ختم الله عليها وهي قلوب البهائم، وهو تشبيه معقول بمحسوس، أو هو مجاز عقلي، وهو باب واسع عند العرب، يقولون: سال بهم الوادي إذا هلكوا، وطارت بفلان العنقاء إذا طالت غيبته.

﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ البقرة: ١٠، استعارة تصريحية حيث استعير المرض لما ران على قلوبهم من جهل وسوء عقيدة، وما إلى ذلك من ضروب الجهالات المؤدية إلى المتالف.

في قوله تعالى ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ البقرة: ١٦، في هذه الآية استعارة تصريحية ترشيحية، والمعنى اختاروا واستبدلوا، وقرينة الاستعارة الضلالة، ثم رشح لهذه الاستعارة بقوله: فما ربحت تجارتهم، فأسند الربح إلى التجارة، فالمستعار منه

الذي هو الشراء رشح لفظي الربح والتجارة للاستعارة، لما بين الشراء والربح من الملاءمة، والترشيح هو أن يبرز المجاز في صورة الحقيقة، ثم يحكم عليه ببعض أوصاف الحقيقة، فينضاف مجاز إلى مجاز، ومن ذلك قول حميدة بنت النعمان بن بشير:

**بكى الخز من روح وأنكر جلده ‏ ‏ ‏ ‏ وعجت عجيجا من جذام المطارف**

فقد أقامت الخز مقام شخص حين باشر روحاً بكى من عدم ملاءمته بقولها: وأنكر جلده، ثم زادت في ترشيح المجاز بقولها (وعجت) أي صاحت مطارف الخز من قبيلة روح هذا، وهي قبيلة جذام. ومعنى البيت أن روحاً وقبيلته جذام لا يصلح لهم لباس الخز ومطارفه، لأنهم لا عادة لهم بذلك، فكنى عنهم بما كنى في البيت. والفرق بين اشتروا واستبدلوا من وجهين: أن الاستبدال لا يكون شراء إلا إذا كان فيه فائدة يقصدها المستبدل منه، سواء كانت حقيقة أم وهمية. إن الشراء يكون بين متبايعين بخلاف الاستبدال فإذا أخذت ثوباً من ثيابك بدل آخر يقال إنك استبدلت ثوباً بثوب، فالمعنى الذي تؤدي إليه الآية أن أولئك القوم اختاروا الضلالة على الهدى لفائدة لهم، بإزائها يعتقدون الحصول عليها من الناس، فهو معاوضة بين طرفين يقصد بها الربح، وهذا هو معنى الاشتراء، ومثلها البيع والابتياع، ولا يؤديه مطلق الاستبدال، وهذا سر اختيار اشتروا على استبدلوا [1].

والتتميم في قوله تعالى «وما كانوا مهتدين» وهو أن يأتي في الكلام كلمة أو كلام إذا طرح منه نقص معناه في ذاته أو صفاته، أو لزيادة حسنه، فقوله: (وما كانوا مهتدين) تتميم لما تقدم أفاد بأنهم ضالون في جميع ما يتعاطونه من عمل.

---

(١) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش، ج١، دار ابن كثير ١٩٩٤، المجلد الأول، دار الإرشاد، حمص، سوريه،ط ٤.

﴿ صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ البقرة: ١٨ ، استعارة تصريحية، فقد شبههم بالصم والبكم والعمي، وطوى ذكر المشبه، واعتبره بعض علماء البلاغة في حكم المذكور، فهو عندهم تشبيه بليغ وارد في كلامهم كثيراً.

والاستعارة المكنية في قوله تعالى ﴿ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ٢٧، فقد شبه العهد بالحبل المبرم، وحذف المشبه به، رمز إليه بشيء من خصائصه وهو النقض لأنه إحدى حالتي الحبل وهما النقض والإبرام، الاستعارة المكنية التبعية في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم ﴾ البقرة: ٧٤، تشبيهاً لحال القلوب في عدم الاعتبار بما هو ماثل أمامها، ناطق بلسان الحال بالحجارة النابية التي من خصائصها القسوة والصلابة .

والاستعارة المكنية التبعية في شراء الحياة الدنيا بالآخرة. في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ والاستعارة التصريحية في قوله: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٣٨، فقد شبه الدين الإسلامي بالصبغة، وحذف المشبه وأبقى المشبه به، وقد تشبث أعشى همدان باللفظ والمعنى حيث قال:

| | |
|---|---|
| **وكل أناس لهم صبغة** | **وصبغة همدان خير الصبغ** |
| **صبغنا على ذاك أولادنا** | **فأكرم بصبغتنا في الصبغ** |

الاستعارة التصريحية في قوله تعالى ﴿ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا ﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ البقرة: ١٧٥ ، فالاستعارة هنا في اشتراء الضلالة بالهدى.

والاستعارة التصريحية في قوله تعالى ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا ﴾ البقرة: ٢٤٥ ، (يقرض) استعارة تصريحية، فقد حذف المشبه وهو العمل

الصالح، وأبقى المشبه به، وهو ما يقترض من مال أو غيره، ورشح للاستعارة بمضاعفتها كما يحصل في القروض والفوائد المترتبة عليها.

والاستعارة التصريحية في قوله تعالى ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فالكلمة مجاز عن علمه تعالى أو ملكه وتصوير صحيح لعظمته، حذف المشبه وهو العلم والقدرة والعظمة، وما يترتب على الجلوس فوق كرسي الملك من معاني الأبهة والإحاطة الجامعة.

والاستعارة التصريحية التمثيلية في قوله تعالى: ﴿العروة الوثقى﴾ من الآية ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ البقرة:٢٥٦ ، في قوله ﴿العروة الوثقى﴾ استعارة تمثيلية، فقد شبه من يسلك سبيل الله بمن أخذ بحبل وثيق مأمون لا ينقطع، فهو آمن من الانزلاق والتردي في مهاوي الخطل والضلال.

الاستعارة التصريحية في قوله تعالى (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى لنور) فقد استعار الظلمات والنور للضلالة والهدى.

الاستعارة التصريحية في قوله تعالى ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ البقرة:٢٦٧، شبه التجاوز عن الشيء الجدير بالمؤاخذة بغض العين عما يتفادى المرء رؤيته مما يكره.

الاستعارة التصريحية التبعية في قوله تعالى ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ البقرة: ٢٨٣، فقوله ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ استعارة تصريحية، فقد شبه تمكنهم من السفر وارتياضهم عليه وتمرسهم به بتمكن الراكب من ركوبه.

الاستعارة التصريحية التبعية في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٦٩، فقد شبه تزيين الشيطان لهم وتحريضه إياهم على الشر، وتأريث نار الشهوات في النفوس بأمر الآمر: والواقع أن أمر الشيطان هو عبارة عن الخوالج التي تساورنا وتحدونا إلى اجتراح السيئات.

ومن الاستعارة التمثيلية قوله تعالى ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ٦١، فقد شبه حال ملازمة الذلة والمسكنة والخنوع لهم بحال من ضربت عليه قبة فأطبقت عليه وأحاطت به من كل ناحية[1].

وقوله تعالى ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ البقرة: ٨١، شبه حال من لصق نفسه بأوحال المعاصي بحال من أحاط به أعداؤه الظافرون، فلم يعد يملك الخلاص منهم وهي استعارة تمثيلية.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ١٩، فهي ترسم حال الاقتدار الإلهي الذي ملك كل شيء، وهيمن على كل شيء، وحال ضعف الكافرين وعجزهم مع هذه الهيمنة، حتى لم يعودوا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ البقرة: ١٦٨، فقد شبه من انحرف عن درب الهدى بحال من سار وراء الشيطان يحذو حذوه خطوة خطوة في مسيرة ضياع وذلة.

---

(١) يقول القزويني في الإيضاح، ج ١، ص ٤٢٨: «جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم، فالمستعار منه إما ضرب القبة على الشخص، وإما ضرب الطين على الحائط وكلاهما حسي، المستعار له حالهم مع الذلة والجامع الإحاطة أو اللزوم وهما عقليان»

## التشبيه في السورة

لقد اعتمد الأقدمون العقل في عقد التشبيه يجعلونه رابطاً بين أمرين أو مفرقاً بينهما، وأغفلوا في كثير من الأحيان وقع الشيء على النفس، وشعورها به سروراً أو ألماً، وليس التشبيه في واقع الأمر سوى إدراك ما بين أمرين من صلة في وقعهما على النفس. أما تبطن الأمور وإدراك الصلة التي يربطها العقل وحده، فليس ذلك من التشبيه الفني البليغ، وعلى الأساس الذي أقاموه استجادوا قول ابن الرومي:

**بذل الوعد للأخلاء سمحاً وأبى بعد ذاك بذل العطاء**

**فغدا كالخلاف يورق للعيـ ـن ويأبى الإثمار كل الإباء**

فإذا كانت تفاهة المخبر تقلل من شأن الرجل ذي المنظر الأنيق، وتعكس صورة منتقصة في نفس رائيه، فإن الشجرة لا يقلل من جمالها لدى النفس عدم إثمارها، وبهذا اختلف الوقع لدى النفس بين المشبه والمشبه به، ولذلك لا يعد من التشبيه الفني المقبول[1].

لقد استخدم الأقدمون المقارنة الحسية للتشبيه بين الأشياء، وإن هذه المقارنة مبنية على استكشاف صلة بين شيئين لها دلالة فنية وجدانية، ولا تقتصر على الدلالة التجريدية الحسية، ومن هنا كان لها وقع في النفس مؤثر.

والتشبيه في هذه السورة كغيره في سور القرآن الأخرى له من الطبيعة نصيب، كما نرى في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ البقرة: ٧٤، فالحجارة من الطبيعة، وإن هذه الحجارة تحمل صفة القلوب في أنها لا تلين، وأنها خالية من الأحاسيس والمشاعر، فهي ميتة

(١) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، ص ١٨٨، مكتبة نهضة مصر، ط٣، ١٩٥٠، القاهره

في كل شيء، ونرى أن هذا التشبيه يجري على الفطرة، لا تكلف فيه ولا تصنع، وأنه أساسي لا يستغنى عنه وأنه «إذا سقط من الجملة انهار المعنى من أساسه»[1].

فقد شبه القلوب في صلابتها وقسوتها، وأنها لا ينفذ إليها شيء من الخير والحق بالحجارة، والحجارة أوضح ما يصف الغفلة والجمود، فالتشبيه يفيد أن هذه القلوب لا تثمر الخير أبداً، :لأنها ليست موضعاً صالحاً للإنبات[2].

ففي قوله تعالى ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ البقرة: ١٨، أنهم في بلادة إحساسهم بالهدى وإعراضهم عن الحق، واستغلاق عقولهم على الباطل لهم شأن ولا يصوره إلا الصم فلا يسمعون، والبكم فلا ينطقون، والعمي فلا يرون ولا يبصرون.

ألا ترى أن تأثير هذا في النفس لا يجاريه تأثير، ولا يعلو عليه أسلوب في إحاطته بأحوال هؤلاء بهذه العبارة القصيرة المؤثرة[3].

ومن الدلالات القوية في التشبيه قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾البقرة: ١٦٥، فقد استطاع هذا التشبيه ايصال مدى حب هؤلاء المشركين لآلهتهم.

إن القدرة المعجزة في اختيار الألفاظ الموحية والاستخدامات الدقيقة للعبارات في قوله تعالى «لباس» ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ

(١) من بلاغة القرآن، احمد احمد بدوي،

(٢) التصوير البياني، د. محمد أبو موسى، ص ٢٧، مكتبة وهبه، القاهره.

(٣) يقول الخطيب القزويني في الإيضاح، ص ٣٢٨ « حذفت فيه أدارة التشبيه، وكان المشبه به خبراً للمشبه، أو في حكم الخبر، ويسمى تشبيهاً على المختار»

لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾البقرة: ١٨٧، هل ترى عبارة لها من الدلالات النفسية والفكرية والعاطفية ما لهذه الكلمة (لباس)؟ إن العلاقة الزوجية بين الأزواج تقتضيها أمور كثيرة في حاجة كل منهما إلى الآخر، والود والعطف والحنان بينهما، والصلة الوثيقة والتلازم والتواد والتراضي باختيار كل منهما للآخر، كل هذه المعاني لا تقوم بها كلمة غير كلمة لباس مهما حاولنا التفكير في بدائل مناسبة،

إن القدرة على تنوع التشبيه في الحدث الواحد، وتلون الصورة المنقولة من سمات التشبيه في القرآن الكريم، انظر إلى قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴿١٧﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ البقرة: ١٧-١٩. إن اختلاط الأمور لدى هؤلاء المنافقين واضطراب أمرهم وحيرتهم وترددهم لا توصلها إلى الأذهان إلا تلك الصورة الدقيقة بحركاتها الحسية والنفسية التي رسمتها هذه الآية الكريمة، فإضاءة ما حول من أوقد النار مكنته من السير قليلاً، لأنها كشفت له الطريق وعرفته مواضع قدميه، ولا يلبث الضوء أن يتلاشى، فيعم الظلام الدامس الذي يشل حركته فيتخبط في مشيته.

أما تلك الصورة الرهيبة المفزعة التي رسمتها الآية، حين نتصور شخصاً تتألب عليه الرعود، فتكاد تصم سمعه، والبروق تكاد تخطف بصره، ووابل لا يرحم من زخات متواصلة مغرقة، كل ذلك في ظلمات بعضها فوق بعضها تذهب ما قد يكون بقي في نفسه من أثر للأمل والنجاة.

أي قول يستطيع أن يعطي هذا الموقف الرهيب حقه غير هذه العبارات المعجزة.

ويهدف التشبيه القرآني في هذه السورة كغيره من التشبيهات في السور القرآنية إلى الترغيب والترهيب، ولذلك عمد إلى تصوير حال هؤلاء الكافرين بصورة تكشف عن حقيقة كبرهم واستعلائهم وإعراضهم عن الحق، وجمود عقولهم وقلوبهم، فلا تهزها دعوات الحق ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

ومن خلال الترغيب والترهيب، نرى التشبيه يرسم صورة منفرة قبيحة للمرابين الذين يظنون أنهم على شيء في جمع أموال الحرام ، لكن حقيقة أمرهم كحال من أصابه مس من الجنون، فهو يتهاوى إذا ما نهض، ويتخبط في غير وعي، فهو في وضع يشين كرامته كإنسان، ويحط به في هاوية الغواية والضلال. ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ البقرة: ٢٧٥،

وفي الجانب الآخر من خط الترغيب والترهيب، يرسم صورة مشرقة وضاءة مقابلة للصورة المنفرة المذكورة، صورة الذي تسامى بنفسه عن الجشع، وتنزه عن الطمع، فأنفق ماله طواعية يبتغي بذلك وجه الله، وما أعده الله من الجزاء الأوفى لأولئك الذين شملهم فضله، وباركت أفعالهم رحمته ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ البقرة: ٢٦٥.

ترى ما نوع السعادة التي تغمر نفس من له جنة على أرض مرتفعة، تهطل الأمطار عليها فترتوي، وينحدر ما زاد منها إلى المنخفضات المجاورة، فلا تضر الجنة زيادة الأمطار، ولذلك تضاعف ثمرها. وفي موقف آخر يبين فضل الإنفاق، كباذر حبة قمح أنبتت عوداً يحمل سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة، أنه ترغيب في البذل والعطاء، وكشف عن فضل الله وكرمه الذي لا حدود له.

ويكشف التشبيه صورة مجسمة، اعتاد الناس رؤيتها في حياتهم اليومية، إنه منظر مألوف رؤيته، تستوعبه كل النفوس البشرية، وعلى بساطته كمظهر طبيعي عادي مدرك بالعيون ومستوعب بالأفكار، إلا أنه يشمخ في سمو غايته، ويتعالى بجلال مقصده، إنه الإنفاق الذي لا تشوبه شائبة من نفاق أو طلب للصيت والشهرة، وإن ترنح القصد عن سمو الغاية، فوجيء صاحبه بهذا المنظر الطبيعي يفصح عن خسارة الإنفاق في ميزان الحق، فلا يسجل لفاعله شيئاً من الحسنات، ولا يبقى له رصيد فيما أقدم عليه، تماماً كما يمسح الوابل غبار الحجر الأملس فلا يبقى عليه شيء من التراب ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾ البقرة: ٢٦١، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾ البقرة: ٢٦٤.

«وتأتي كاف «كذلك» في كثير من الآيات بمعنى مثل كقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ

بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ البقرة: ٢٦٥ - ٢٦٦،فالمعنى على أن يبين الآيات ذلك البيان الجلي الواضح المؤثر لعله يثمر ثمرته فيدعو سامعيه إلى التفكير والتدبر»[١].

وقد ورد التشبيه في السورة الكريمة في مواضع متعددة، وبأنواع مختلفة نذكر بعضها فيما يأتي:

قال تعالى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ البقرة: ١٧، نرى هنا تشبيهاً تمثيلياً، ووجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، أي أن حال المنافقين في نفاقهم وإظهارهم خلاف ما يسترونه من كفر كحال من استوقد ناراً ليستضيء بها، ثم انطفأت فلم يعد يبصر شيئاً، وهكذا يبدو أن التشبيه التمثيلي يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين، ويريك للمعاني المتمثلة بالأوهام شبهاً في الأشخاص الماثلة، وينطق لك الأخرس، ويعطيك البيان الأعجم، ويريك الحياة في الجماد، ويجعل الشيء قريباً بعيداً، ومن أمثلته في الشعر قول بشار:

| | |
|---|---|
| **يا صاحبي تقصيا نظريكما** | **تريا وجوه الأرض كيف تصور** |
| **تريا نهاراً مشمساً قد شابه** | **زهر الربا فكأنما هو مقمر**[٢]. |

(١) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، ص ٢١٠، مكتبة نهضة مصر، ط٣، ١٩٥٠، القاهره
(٢) من بلاغة القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش، المجلد الأول

مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً... إلى قوله تعالى ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ البقرة: ١٧ ــ ٢٠.

هذا التشبيه التمثيلي المتكرر له تموجات تفصيلية في عقد الشبه بين المنافق ومستوقد النار. إن مجرد تظاهر المنافق بالعطاء يقابله ومضة النار والاستضاءة بها لفترة قصيرة جداً، وهي بمثابة رمز للإضاءة، لا ينتفع بها صاحبها لأنها تزول بسرعة لعدم تزويدها بما يساعدها على استمرار الاضاءة ويقابل الوقود في النار الايمان عند المنافق، فهو لا يلبث أن ينسف الله حسناته ويزيلها وجود الإيمان في قلبه الذي يمكنه من الاستفادة بما أنفق. كما أن قوله تعالى في ظلمات، إشارة إلى الظلام المخيم بعد انطفاء النار، وظلام النفس بزوال إيمانها

﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾البقرة: ٢٥ .تشبيه بليغ لأن أداة التشبيه محذوفة.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾البقرة: ٧٤ ، هذا تشبيه مرسل حيث شبه قلوبهم في تجافيها عن الحق وجنوحها إلى الباطل، وعدم استجابتها للهداية والإرشاد الإلهي بالحجارة التي لا حياة فيها ولا مشاعر، وأنها لا تلين أبداً.

«وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم» جعلت قلوبهم لتمكن حب العجل منها كأنها تشرب، ومثله قول زهير «والحب يشربه فؤادك دائماً» [1]. ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة:١٧١ ، هذا التشبيه التمثيلي الجميل الذي رسم لوحة فنية ترى فيها البهائم وهي تتدافع في المراعي ، أو تتزاحم على موضع الماء، فتزجر، أو تخاطب، فلا تعي ما يطلب منها كذلك حال من يعقد الآمال على دعوة الكافرين إلى الحق كحال الزاجر لتلك البهائم. لقد استطاع هذا التشبيه بما فيه من ماء الوجدان، وحصافة الفكرة، وروعة الريشة، وصفاء العبارة، أن ينقل المشهد حياً في نفوسنا، شاخصاً في أذهاننا وأبصارنا.

﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ البقرة: ١٨٧ ، هذا تشبيه بليغ جميل، حيث شبه أول ما يبدو من الفجر في بياض على امتداد الأفق الشرقي بالخيط الأبيض، وما يختلط به من بقايا ظلمة الليل الممتدة عبر الأفق بالخيط الأسود، ومن بلاغة الأسلوب ذكر (من الفجر) ولو لم يذكر لكانت استعارة تصريحية [2]

وهناك تشبيه بليغ آخر في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ البقرة:٢٧٥، إن المرابين يحرصون على الدفاع عن تعاملهم بالربا، ويعملون جاهدين من

---

(١ ) من بلاغة القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش، دار ابن كثير، ١٩٩٤، ط٤.

(٢ ) قال الزمخشري: «وقوله (من الفجر) بيان للخيط الأبيض، واكتفى به عن بيان الخيط الأسود، لأن بيان أحدهما بيان للثاني. وقال «إن قوله من الفجر أخرجه من باب الاستعارة، كما أن قولك رأيت أسداً مجازاً، فإن زدت من فلان رجع تشبيهاً، الكشاف، ج١، ص ١٧٤، ١٧٥، والآية من الاستعارة عند عبد القاهر وكذلك عند الشريف الرضي، أنظر أسرار البلاغة ص ٢٢٧، ط رينر، وتلخيص البيان ص ١٢٠، التصوير البياني، محمد أبو موسى، ص ١٩٥.»»

أجل تجميع حججهم، وتلميع أدلتهم، ليبرروا فيها تحليل ما حرم الله من أموال الربا، فعمدوا في تهالك محموم، يبالغون في تشبيه البيع بالربا، فعكسوا الكلام مبالغة منهم في ذلك، من أجل أن يكون البيع فرعاًوالربا أصلاً، ومن التشبيه المعكوس قول البحتري في وصف بركة المتوكل:

**كأنها حين لجت في تدفقها يد الخليفة لما سال واديها**

ومن أنواع التشبيه ما يجسد الأمور المعنوية ويبرزها في صورة محسوسة، كقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾البقرة: ٢٧٥، والخبط الضرب [١].

قال الزمخشري: «والعرب يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع، والمس الجنون، ورجل ممسوس أي مسه الجن فاختلط عقله، وكذلك جن الرجل معناه ضربته الجن، ورأيت لهم في الجن قصصاً وأخباراً وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهد» [٢].

وهناك خلاف بين أهل السنة والجماعة من جهة والأحناف المعتزلة من جهة أخرى، فينظر أهل السنة إلى هذه الصورة التي وردت في الآية الكريمة، أنها صورة حقيقية واقعية، لأن القرآن صادق في كل ما ورد في تراكيبه، ولا يعول فيها على خرافة، بينما ينظر المعتزلة أن هذا التشبيه مأخوذ من معتقدات العرب، بغض النظر عن كونه أمراً واقعاً أم لا، وعند أهل السنة أن هذه

---

(١ ) ومنه خبط عشواء، وهي الناقة التي في بصرها ضعف تخبط إذا مشت لا تتوقى شيئاً، وخبط الشجرة ضربها بالعصا ليسقط ورقها، والخباط كالجنون، وكخبطة الشيطان أي أفسده، مختار الصحاح، مادة خبط.

(٢ ) الكشاف، ج٢، ص ٢٤٥.

الصورة تصف مشهداً من مشاهد يوم القيامة للمرابي الذي يفضحه الله عن طريق انتفاخ بطنه بالربا.

والقرآن الكريم يقارن بين ظاهرتين متباينتين من ظواهر السلوك الإنساني، فالإنفاق ابتغاء وجه الله، مظهر طمأنينة النفس المؤمنة، وسيرها على المنهج القويم ﴿ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ البقرة:٢٦٥. وأكل الربا جمع المال بطرق غير مشروعة مغايرة للأولى فصاحبها ضل عن طريق الهدى، ويئس من رحمة الله تعالى وفقد الثقة فيما عند الله، والتخبط إشارة إلى نفس المرابي المضطربة ، التي حكمها المال ، فخرجت عن طوع صاحبها ، وأصبح المرابي عبداً للجشع والطمع، يفعل به كما يشاء كحال من يصاب بمس الشـــيطان لا يملك من أمره شيئاً فالمال هو الشيطان[1].

مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعس عبد الدنيا»، ففي قوله تعالى ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ إشارة إلى أن الأمن والأمان للمنفق ماله في سبيل الله.

وكما عقدت المقارنة بين المنفق ماله في سبيل الله وبين آكل الربا، فقد كان الجزاء متفاوتاً، فمضاعفة الأجر للمنفق ماله في سبيل الله مثله بسنبلة، وهي الغذاء الأساسي للإنسان، فيها الخير والبركة، أما الخسارة الفادحة التي تلحق بمن ينفق ماله رئاء الناس، لا تقتصر على محق حسناته وعدم احتسابها فحسب ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾ بل إن هذه الصورة الجميلة التي ترسمها الآية الكريمة للمنفق ماله من أجل أن يقال فلان كريم،

(١) التصوير البياني، ٢ ٢٦٥، ٢٦٦، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبه، القاهرة.

أو من أجل أي غرض بعيد عن رضى الله تعالى، تمثله الآية تمثيلاً معجزاً، فليس له من ماله المنفق فائدة، إلا كالفائدة التي تأتي لمن احترقت جنته من ذكريات استمتاعه بها بعد احتراقها، فحاله كمن يأكل خبزه على رائحة الشواء، وفي قوله تعالى ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾ هذا الاستفهام الذي يحمل غرضه البلاغي النفي، إذ لا يعقل أن يتمنى أحد أن يصل به الحال إلى ما وصفت الآية الكريمة، ثم وصفت الآية النعيم والمتعة ﴿ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ، ثم رسمت المحق الرباني لهذه النعمة بصورة مرعبة ﴿ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾، وهذا تجسيم مخيف لنار تضطرم، ويزيدها الإعصار تأججاً، وتأتي على كل ما كان من تلك الجنة، وتتركها أثراً بعد عين.

هكذا تعصف الهواجس بالنفس الأمارة بالسوء برصيد خيرها، وتمحق النيات السيئة أعمال أصحابها، فلا تبقى على أثر ليجزى به، وتسحق كل أمل له في الخير، وتورثه الويلات والحسرات.

وهكذا نرى أن آيات هذه السورة الكريمة قد تضمنت من التشبيهات ما رصدت أدق الخفايا، وسجلت أخفى الحركات، وهي انعكاس لخواطر العربي وحسه المرهف، ووجدانه الذي انتشر فأحصى كل ما حوله، وانتشر فزرع الصحراء، إدراكاً ووعياً، فأنبتت بلاغةً بالغةً حد التميز، وفصاحةً فاحصةً أعقد القضايا، وأبعد المرامي بصدق وعفوية.

يقول ابن طباطبا مشيراً إلى الميادين التي استمد منها العرب صور تشبيهاتهم: «فتضمنت أشعارها من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانها وحسها إلى ما في طبائعها وأنفسها من محمود الأخلاق ومذمومها، في رخائها

وشدتها، ورضاها وغضبها، وفرحها وغمها، وأمنها وخوفها، وصحتها وسقمها، والحالات المتصرفة في خلقها وخلقها تشبيهاً صادقاً على ما ذهبت إليه معانيها التي أرادتها»[1].

والتشبيه التمثيلي في قوله تعالى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ البقرة: ١٧، إن تشبيه حال المنافقين بحال الموصوف بصلة الموصول في الآية في أمر حقيقي منتزع من متعدد، وهو الطمع في حصول مطلوب لمباشرة أسبابه القريبة مع تعقب الحرمان والخيبة لانقلاب الأسباب»[2].

---

(١) عيار الشعر، ص ١٠، ١١ نقله التصوير البياني، د. محمد أبو موسى.

(٢) الإيضاح، الخطيب القزويني، ج٢، ص ٣٧٣.

# الكناية في السورة

إن للكنايه القرآنية قدرة عجيبة في مجال البلاغة، ومن مجالات قدرتها البلاغية احتواؤها حدة اللفظ وجفوته، واختصارها للفكرة، وتصويرها بدقة متناهية، وتقريبها المعاني إلى الأذهان وتوضيحها.

وقد ضمت هذه السورة الكريمة مجموعة من الكنايات منها قوله تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ البقرة: ٦١. إن ملازمة الذلة والهوان والمسكنة لهم ملازمة طرأت عليهم، بعد أن كانوا بعيدين عنها، وحين قدرها الله عليهم ضربها كما تضرب الخيمة أو البناء، فأصبحت ملاصقة وملازمة لهم، لا يستطيعون الفكاك منها.

ومن جمال هذه الكناية استخدامها كلمة (ضربت) من زاويتين: أولاهما بناؤها للمجهول الذي يوحي بأن قوة قاهرة هيمنت على مقدراتهم، وشاءت أن يكونوا أذلاء، لا تفارقهم تلك الذلة، فهي مضروبة عليهم ومفروضة، والزاوية الثانية لكلمة (الضرب) الموحية بالملازمة والملاصقة والاحتواء، فلا خلاص منها بعد ضربها، ومن وحي هذه الكناية قال الفرزدق يهجو جريراً:

**ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المحكم**

﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ البقرة: ٩٦، للكناية في هذه الآية بيان لتشبث هؤلاء بالدنيا، «فالألف» لم تذكر على سبيل التخصيص، ولكنها سقف لمدة زمنية لا يمكن للإنسان أن يعيشها، فهم يتمنون أن يعيشوا أطول عمر ممكن.

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾

إن هذه الكناية توحي بالعدالة والاستقامة والعدل والحق، وتشير إلى مزايا الإسلام التي جعلها الله بفضله، لا تحيد يمنة ولا يسرة، وكل خروج عنها شطط وضلال، وخروج عن جادة الصواب.

فمن يمسك العصا من طرفها الأيمن تميل بثقلها إلى الأيسر، ومن أمسكها من طرفها الأيسر ثقلت عليه بميلها إلى الجانب الأيمن، ولكن التوازن والانسجام أن تمسك من وسطها لتجنب الانحراف والجنوح والميل، لضمان التوافق بين جزئياتها، كما يضمن الإسلام الانسجام في شرع الله مع الأديان السماوية، لأنه سائر على نهجها الأول، ناسخ لها جميعاً، والوسط ههنا الخيار الأجود، كما يقال «قريش أوسط العرب نسباً وداراً» «أي خيرها» [1].

﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ البقرة: ١٧٤، في هذه الآية ضرب من الكناية يسمى (التعريض) لأن الموصوف غير مذكور، فهؤلاء محرومون من نعمة كبرى، وهي تكليم الله إياهم كما يكلم المؤمنين في الجنة ويزكيهم.

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ البقرة: ١٨٧، هنا كناية جميلة ولها أغراض كثيرة:

أولها أن اللباس ستر واكتفاء بنعمة الزوجية، وتلازم دائم يكمل كل منهما الآخر، ويمده بما يحتاجه من احتياجات غريزية فطرية ونفسية واجتماعية،

وثاني هذه الأغراض وقاية اللسان وحفظ عفته من الانزلاق فيما لا يليق النطق به صوناً للحياء، وإبقاء على الحشمة، وتفادياً لخدش الأسماع والأذواق السليمة.

---

(١) أنظر تفسير ابن كثير، جذ١، دار القلم، بيروت، لبنان.

ومن الكناية قوله تعالى: ﴿ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ ﴾ والمباشرة في قول الجمهور الجماع، وقيل الجماع فما دونه، وهو مشتق من تلاصق البشـــرتين فيدخل فيه المعانقة والملامسة»[1]، واللباس من الملابسة وهي الاختلاط والجماع[2].

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾البقرة: ٢٢٣ ، كناية عن جماع المرأة بالطريقة التي يختارها الزوج ما دام المأتى واحداً.

﴿ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ البقرة: ٢٣٥، السر في هذا الموضع النكاح[3]، ويرويه الفراء عن ابن عباس وينشد لامرىء القيس:

**ألا زعمت بسبابة اليوم أنني كبرت وألا يشهد السر أمثالي (٤)**

ففي قوله تعالى ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ نرى التناسق الظاهر والباطن، ومن أجمل ما في هذا التناسق ذلك التشابه بين صلة الزوج بزوجه، وصلة المزارع بزرعه، وما يترتب على كل من هاتين الصلتين من تكثير وعمران وفلاح. وبالإضافة إلى لطف الكناية في الآية، نرى جمال الاستعارة التي تحمل هذه المعاني الدقيقة.

والكناية لفظ أريد به لازم معناه، وقد وردت في هذه السورة بكثرة، وكذلك في بقية سور القرآن الكريم نظراً لقدرتها على التعبير بالإشارة والتلميح، دون الكشف والتصريح، وتستعمل الإيماء في مواطن يحسن فيها

(١ ) أنظر إعراب القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش، المجلد الأول، ص ٢٧٣، دار الإرشاد، حمص، سوريه، ط ٤، ١٩٩٤.

(٢ ) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله)، ج٢، ص ٣٠٤، المكتبة العصرية.

(٣ ) المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين.

(٤ ) معاني القرآن، الفراء، ج ١/ ١٥٣.

عدم التصريح، تعففاً عن النطق بالمعنى الحقيقي، كما رأينا في قوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ وقوله تعالى ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾.

يقول الدكتور صبحي الصالح: «فيه وصف العلاقة بين الزوجين بما فيه من مخالطة وملابسة»[1] ، فاستعمال مثل هذه الكنايات صون للسان بأسلوب إيماء وتلميح، ورمز فيه الفصاحة والبيان.

ومن الكناية قوله تعالى ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ البقرة:٢٧٣

«إن الله به عليم» كناية عن الجزاء على الإنفاق «لأن العلم يكنى به عن أثره كثيرا، فلما كان الإنفاق مرغباً فيه الله، وكان الله بذلك معروفاً للمسلمين تعين الإخبار بأنه عليم به، إنه عليم بامتثال المنفق، أي فهو لا يضيع أجره، إذ لا يمنعه منه مانع بعد كونه عليماً به لأنه قدير عليه»[2].

## تصوير المعاني المجردة[3]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾البقرة: ٢٦٤.

رسمت الآية الكريمة أمامنا مشهداً طبيعياً حياً، ورسمت لوحة فنية، وصورة كلية ممتدة. فيها اللون والصوت والحركة، نرى فيه اللون في الكلمة

---

(١ ) مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص ٣٣٠، نقلاً عن «البرهان في علوم القرآن» للزركشي، ٢/ ٣٠٤، ومجازات القرآن ٣٥٤.

(٢ ) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص ٧٧، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

(٣ ) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، بتصرف، دار المعارف بمصر، ط ٨، القاهرة.

(صفوان)، وكلمة (تراب)، وفيها الحركة والصوت في كلمة (وابل)، وقد حولت الآية هذه المعاني المجردة إلى صورة حسية نتخيلها تحدث أمامنا بألوان التراب والحجارة، وأصوات الأمطار وهي تهطل، وحركة المطر وهو يزيل التراب الخفيف عن الحجارة، فيتركها ملساء نظيفة من الغبار والتراب.

وقد درجت آيات أخرى في تطوير المعاني المجردة وتجسيمها في الأذهان والنفوس كقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ البقرة: ٢٦٥.

هنا صورة حسية أخرى ترسمها هذه الآية الكريمة بكل أبعاد الصورة الأولى من حيث تجسيمها، فالصورة الكلية الممتدة بألوانها وحركاتها وأصواتها، نراها ونسمعها ونحسها قطعة من الطبيعة النابضة بالحياة، المفعمة بخصائص الفطرة، نراها في كلمة (جنة)، وكلمة (ربوه)، فنتخيل الألوان المختلفة في الأشجار والورود والأزهار والفواكه والثمار. ونتخيل الحركة والصوت في (وابل)، فنكاد نسمع زخات المطر تتلاعب بها الرياح فتسقط على الأشجار والحجارة، وتندفع سيولاً فتجرف التربة، وأول ما تزيله ما خف من الغبار والتراب وخاصة إذا كان على أجسام صلبة كالحجارة الملساء.

إن النتيجة مغايرة تماماً للصورة الأولى، فالوابل مصدر السعادة والشقاء في كلا الصورتين، فهو تعاسة وشقاء وحرمان في الصورة الأولى، وخير وبركة وسعادة ونماء في الصورة الثانية. والخيط المسبب لاختلاف النتيجة هي النية والتحكم في السلوك الإنساني، فنية الإنفاق ابتغاء وجه الله، والإنفاق تظاهراً ورياء، يحدد كل منهما تلك السعادة أو ذلك الشقاء. ومن مظاهر إعجاز هذه

الآية قدرتها على خلق التناسق المعجز في هاتين الصورتين المتماثلتين المتضادتين في آن واحد.

ومن مظاهر عظمة هذا الإعجاز، اختيار التماثل المتميز بين الصورة المجردة والصورة الحسية، فالتراب الخفيف الذي يعلق بالحجارة الملساء، ويشكل طبقة خفيفة لا تكاد تقف أمام أول نسمة هواء أو قطرة ماء تسقط عليها، يمثل الموقف المهزوز للمرائي، ودرجة الإيمان الذي يدعيه، يغشيه هذا التظاهر الزائف الذي يكشفه على حقيقته عند أول اختبار له.

وفي جو آخر من التجسيم الحسي الحي للمعاني المجردة قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: ١٧١

هذا الجو المفعم بالجهل والضياع والغباء، يلف أرجاء منتديات الكفر في مكة حيث الصمت المطبق في أفواه الآلهة الفاغرة، تلك الآلهة الرابضة بلا حراك ولا حياة بأشكالها التي صنعها عابدوها، وحيث السخف في جلبة تلك الأصوات الغبية، تدعوها بدون إدراك، وتتوسل إليها، فتذهب أدراج الرياح، لا تعيها تلك الآلهة، فتكتمل بهذا الوصف دائرة الضياع بأصنامها، ودعوات عبادها، وضياع تلك النداءات بضياع تلك المدارك، وعمى تلك البصائر، في متاهات غواياتهم وضلالهم، لتختلط مع متاهات صحاريهم.

هذه الصورة الحسية التي ترسم لوحة حية للحياة الجاهلة ومعتقداتها، هي بحد ذاتها إعجاز في مستويات متعددة. إعجاز في نسجها، وإعجاز في تصويرها، وإعجاز في توضيحها معالم التفكير الجاهلي الذي انجرف في دروب الضلال، وانغمس في دياجير الحمق والجهالة.

## تصوير الحالات النفسية والمعنوية

وننتقل إلى لون آخر من ألوان المعاني المجردة هي أدقها معنى، وأعقدها مبنى، وأكثرها تشعباً، وأقلها ارتباطاً بنظام أو حدود. إنها دخائل النفوس، وأسرار القلوب، وتقلبات العواطف، وتهيجات المشاعر، ومتاهات الوجدان، في النفس البشريه تصورها الآية الكريمة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ البقرة: ٢٠٤ ــ ٢٠٥.

تغوص الآية الكريمة إلى أعماق النفس فتسبر أغوارها، وتنتهك حرمة حصونها،كيف لا وهي أثر من آثار القوة الموجدة لها، وصورة لأرجائها، وميادينها الفسيحة، إنها القوة القادرة على إخراج دفائنها على الملأ، وتصوير خباياها، ليعرفها القاصي والداني، تجسم دخائل نفوس فريق من الناس، يبدون خلاف ما يخفون، ظاهرهم صالح، وباطنهم طالح، فتجسم الآية تلك المعاني المجردة، وتصوغها حتى نراها وكأنها شريط مشاهدة بالصورة واللون والحركة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾.

إنه كشف لهوية تلك الحالات النفسية المعنوية في صور ناطقة مماثلة على أرض الواقع المحوس، إنه الإعجاز البياني الخارق لهذه الآيات الكريمة في هذه السورة المباركة.

## تجاوز الحوادث الخاصة إلى الحوادث العامة

سجلت بعض آيات هذه السورة الكريمة مناسبات خاصة لبعض الأحداث، ولكنها في صياغتها وخواصها البلاغية لا تقف عند هذا الحد الذي سجلت فيه تلك المناسبة، بل تتجاوزه إلى عمومية الحدث المماثل له في كل زمان ومكان، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ البقرة: ٢٤٦.

فهؤلاء النفر من بني إسرائيل الذين كانوا وقت السلم يجترون ترف الأحاديث، يتباهون ويفخرون بحرصهم على القتال وتوقهم إليه، فهم يظهرون الشجاعة والبطولة، مدعين أن القيادة تنقصهم في عدم وجود ملك يقودهم في المعارك، وإصرارهم على حب القتال كذبا، عندما ذكرهم نبيهم بما قد يقع منهم من نكوص وتراجع وتردد، إذا ما وجدوا أنفسهم وقد فرض عليهم القتال، وكأن نبيهم قد تلمس خبايا نفوسهم فكابروا. ويفرض عليهم القتال حقيقة، فيسرع الكثير منهم إلى الهرب ويثبت القليل.

وهذا ينطبق على كل حدث مماثل ، وكل مناسبة شبيهة بهذه المناسبة في كل الأمكنة والأزمان.

## لوحات فنية ربانية [1]

من سمات هذه السورة الكريمة أنها حوت أنماطاً متنوعة ومتميزة من البلاغة القرآنية المعجزة في ثنايا آياتها، ولا نستطيع أن نستعرض كل ما جاء في ذلك تحليلاً وتعليلاً، وإبانة عن مواطن البلاغة، نظراً لطول هذه السورة المباركة من جهة، ولغناها بتلك الأنماط البلاغية من جهة أخرى. ولكن لا بد من عرض تحليلي لبعض آيات هذه السورة.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ

---

(١) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، بتصرف، دار المعارف بمصر، ط ٨، القاهرة.

وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ البقرة: ٨ـ٢٠.

يبدأ تعالى قوله ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ، وهي كلمة عامة تشمل جميع الطوائف، وتبتعد عن التحديد والتخصيص لحكمة ربانية، وبلاغة قرآنية، لعل من ذلك الطمع في إيمانهم، والمس الخفيف لأوزارهم وبعدهم عن الحق، لعل في ذلك إبقاء على ما بقي من أمل إصلاحهم وهدايتهم، ولو جرحتهم الآية وخصتهم لأضاعت القطيعة فرصة قد تعود بهم إلى جادة الصواب.

وقوله تعالى (يقول) فيها إيحاء بأن إنجازاتهم في دائرة الإيمان لم تتعد التفوه بكلمات تخرج من أفواههم، ولا تمس شغاف قلوبهم، أما صيغة الماضي في (آمنا) فلها دلالتها، وهي محاولة الترويج لبضاعتهم الكاسدة بتلميعها والادعاء أن إقدامهم على الإيمان حدث منذ فترة طويلة، وهذا تمويه شائق، وتعريض بتلك المحاولات الزائفة. وقوله تعالى على لسانهم ﴿ بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ فهو إمعان في إعطاء ذلك الإيمان الذي استقر في قلوبهم منذ مدة طويلة صفة اكتمال عناصره.

أما بالنسبة للرد الرباني، فقد جاء موجزاً، وجاء منكراً ادعاءهم بقوله: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴾، إنه إنكار ونفي لذلك الإدعاء في صورة جميلة اسمية توحي بالثبات والاستمرار في نفي صفة الإيمان عنهم.

ومن أسرار هذه البلاغة، أنها ردت على ادعاء بالإيمان مسهب، حشدت له كل محاولات التدليل على صحته؛ بجملة اسمية منفية، فيها كلمتان اثنتان قوضت كل تلك الأركان الوهمية التي بناها أصحابها، ودحضت جميع

الافتراءات التي زعموها، ونسفت كل زخارفهم وخداعهم، فقد كشفهم الله، وعرّى تلك المحاولات الغبية لخداع الله تعالى في قوله ﴿ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ ، وهذه الصيغة صيغة المفاعلة التي تشير الى المشاركة، جعلتهم يدخلون في معركة غير متكافئة مضحكة، لأن تلاعبهم وخداعهم مع الله، فقد يخدع الإنسان بعض الناس ولكن من الغباء أن يحاول خداع رب الناس.

وصيغة المضارعة في قوله (يخادعون) تشخص حالتهم في لوحة فنية مستحضرة في الذهن مشينة ماثلة للعيان مثيرة للضحك.

وتستكمل الآيات رسم اللوحة المزرية للمنافقين باستكمال خطوطها وألوانها التي زادتهم غباء على غبائهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾، وهل هناك أحمق ممن يضر بنفسه دون قصد منه.

أما قوله تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ، فهو مقارنة جميلة بين الجسم والعقل، فكما يلحق المرض بالجسم فيضعفه ويهزله، ويقعده عن مزاولة عمله، كذلك يصيب المرض القلوب والنفوس ضعفًا في الإيمان، وخوراً في اليقين، وزادهم غضب الله عليهم مرضاً على مرضهم، وأما كلمة (في) فتوحي بتفشي ذلك المرض واستفحاله في تلك القلوب. وكلمة (أليم) لتأكيد خصوصية ذلك العذاب الذي سيحل بهم. وقوله (كانوا يكذبون) توحي باستمرارهم ودأبهم على الكذب، وأما بناء الفعل للمجهول (قيل) يوحي بأنهم لا يستجيبون لأي نوع من أنواع الأعمال الفاسدة المفسدة، وكل أنواع السلوك الشائن. وقوله (قالوا) توحي بكل ما يروجون من أكاذيب تضليلية في ادعاءاتهم، و(إنما) أداة الحصر التي وردت عل ألسنتهم تفيد محاولتهم التأكيد على أنهم

مصلحون، وأن هذا الإصلاح لا شك فيه، وقصر الصلاح عليهم دون سواهم، محاولة لبيان أحلامهم أمر مفروغ منه، لا يحتاج إلى إثبات.

وجاء دور الرد الرباني عليهم، فبدأ سبحانه بألا الاستفتاحية تنبيهاً للنفوس، وتمهيداً للأذهان، واستجابة للحق الذي يوحي بالتقاط الأنفاس، وأخذ الشهيق قبل أن يكيل لهم ما يستحقون من ردود على أكاذيبهم، ثم استخدام أداة التوكيد (إن) وإلحاقه بضمير الفصل الذي هو لتأكيد الإسناد في الجملة، وتعريف المسند والمسند إليه يفيد قصر المسند على المسند إليه، فكأنه قصر الإفساد عليهم دون سواهم.

وقد جاء شعورهم في العبارة الأولى (ما يشعرون)، وفي الثانية (لا يشعرون)، وهناك فرق بين الشعورين : ففي الأول يقدمون على المخادعة، فيخدعون أنفسهم دون شعور منهم. فالآية وصفتهم إذن بفقدان جزء من الشعور، وهو ما يشعرهم بأنهم الخاسرون في مخادعتهم. أما الثانية فهم يتعمدون الإضرار والإفساد، ولكنهم لا يقدرون الأمور حق قدرها، فلا يرون الإفساد إفساداً.

أما كلمة (الناس) في قوله تعالى: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾، فالمقصود بها كما آمن المؤمنون الصالحون، فأراد بتعميم الكلمة تمجيد من آمن منهم من جهة، ولإغرائهم بالإيمان ثانياً، ولعدم جرح مشاعرهم، وهذه رحمة من الله تعالى بهم، ولكن ذلك لم يجد نفعاً، فكان ردهم فيه استعلاء وتبجح (أنؤمن كما آمن السفهاء، فقد وصف الإيمان بالسفه والحمق ازدراء واستخفافاً وتعالياً وتكبراً ومكابرة، أما الفاصلة القرآنية التي ختمت الآية بـ (لا يعلمون)، فلأن السفه والحمق وثيق الصلة بالعقل، والعقل يناسبه العلم، ولكن الفاصلة التي سبقتها

وانتهت بـ (لا يشعرون)، فلن الأمر متعلق بإفساد يشعرون به عندما يقدمون عليه.

أما كلمة(خلوا) فتشير إلى جبنهم، وعدم قدرتهم عل المواجهة والمكاشفة، فلا يقوى الواحد منهم على المصارحة والإعلان على الملأ برأيه، ولا يتمكن من ذلك إلا إذا كان بعيداً عن أعين الناس مختبئين مع شياطينهم. وكلمة (شياطينهم) تشير إلى أبالسة وأساطين النفاق، وإلى نفوذهم الواسع على أتباعهم، وتوحي بالضلال المبين للتابع والمتبوع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، توحي بتجدد الولاء لهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾، فقد استخدمت الآية أداة القصر (إنما) لتأكيد ذلك الولاء ونسف لما أعلن للمؤمنين بقولهم (آمنا).

وجاء الرد الإلهي عليهم بلفظ الجلالة (الله) في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ولذلك دلالة مفادها حشد الرد القوي، والتأكيد الواضح بذكر اسمه تعالى دون سائر صفاته تثبيتاً لدلالة الرد الحاسم عليهم، بما يحمل من جلال وعظمة، فهو وحده القادر على التعامل مع هؤلاء المنافقين.

وكلمة (استهزاء) المنسوبة إلى الله تعالى توحي بشدة غضبه تعالى عليهم، وذلك أن (استهزاء هؤلاء المنافقين بالمؤمنين أمر حسي، أراد أن يقابله بأمر معنوي في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ليدخل في الذاكرة أن أمرهم لا يضير المؤمنين، فالله القادر على كل شيء يدافع عن الذين آمنوا. وكلمة(طغيانهم) توحي بأقوى أنواع الضلالة، وأشد أنواع التمرد والمروق والتحدي. وكلمة (يعمهون) توحي بالتخبط على غير هدى فيما هم فيه من الغواية.

أما اسم الإشارة(أولئك) فهي إشارة بإصبع الإتهام الى تلك الفئة من الناس الذين تاهوا في الغواية والضلالة، وفضلوها على الهدى والحق، وهذا يدل على حمق وجهل وخسران مبين.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾ ، فقد أسندت الآية الكريمة الربح إلى التجارة، ولم تسنده إلى الأشخاص الذين يتاجرون بمثل هذه التجارة، لتدلل على الخسارة الحتمية لهذا النمط من التجارة، مهما كان حذق المتجرين. وقوله تعالى: ﴿ ٱسۡتَوۡقَدَ ﴾ توحي باشتمالها على السين بضنك البحث والجهد من جهة، والحاجة إلى النار وإضاءتها من جهة أخرى، إنه يمثل الشدة التي وقع فيها مستوقد النار، فقد أفرج الله تعالى عنه بأن مكنه من إيقادها، ولكن هذه الإضاءة، رغم قوتها وانتشارها لا قيمة لها، لأن الله أذهبها بمجرد أن أضاءها.

وقوله تعالى: ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ ﴾ تدل على القوة المهيمنة التي حرمته من تلك المنفعة التي عقد آماله عليها، واطمأن لها بانتشارها. والاطمئنان تشير إليه كلمة (بنورهم)، وتشير إلى عجزهم أمام تلك القوة الربانية المهيمنة.

وقوله تعالى: ﴿ فِي ظُلُمَٰتٍ ﴾ تشير إلى وقوعهم في حلكة الظلام وقوته، وشدة السواد المتراكم عليهم. وأن قوله تعالى: ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ ﴾ يشير إلى تجريدهم من أبسط الصفات الإنسانية، بل وتجريدهم تجريداً تاماً حتى من الصفات الحيوانية، في نطاق المواهب والحس والحياة، فالصم جردهم من السمع، والبكم جردهم من النطق، والعمي جردهم من الرؤية. أبعد ذلك استهانة أبعد من تلك الاستهانة والتضييع لما خلق الله لهم من عقول شلّوها عن أن تفكر، وقلوب عكروا صفاءها، وحرموها من أن تهتدي.

وقد اختار الله تعالى هذا الموقع الموسيقي الأخاذ من التعبير، وألحقه بوصف آخر مخيف للحيرة والضنك والرهبة، كحال الذي عاش كربة انهمار الأمطار وانصبابها بغزارة مخيفة، مع موجة محمومة من العواصف الرعدية، والعوارض البرقية، فهم بين مطر جارف ، وبرق خاطف، وقصف رعود يشل أسماعهم، فيتخبطون – في غمرة كربتهم والموت يفغر فاه حولهم- بحركات لا إرادية عفوية لا تغني ولا تمنع ، محاولين وضع أصابعهم في آذانهم على غير هدى ولا تفكير، لأن تفكيرهم قد شل، وأصابع توحي بشدة الاضطراب والفزع، وكلمة (يجعلون) تشير إلى شدة الحيرة والذعر الذي أصابهم من أصوات الرعود، فهي محاولات فاشلة مستمرة لسد الآذان بجملة الأصابع. وقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ لتدلل على الهيمنة الكاملة لله تعالى، والعجز الكامل المصحوب بالحالة المفزعة التي وصلوا إليها.

ووصف المنافقين بالكافرين في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، بيان بأن مجرد تظاهرهم بالإسلام لا يخرجهم من دائرة الكفر.

لقد جاء الإيحاء ناصعاً مصوراً أوضح تصوير لتلك المشاهد المعروضة، فهي الألفاظ التي ساقتها الآيات الكريمة. فكلمة (يخطف) توحي بالرهبة الكامنة بسرعة إيقاع الكارثة بطمس الأبصار وخطفها. وكلمة (كلما) توحي بتكرر محاولاتهم التي لا جدوى منها، ورهبتهم التي فرضت عليهم تلك الرغبة الملحة في اجتياز تلك المحنة المفزعة، فلا يكادون يرون النور حتى يهبون إلى السير فيه. وكلمة (عليهم) توحي بالتخييم الشامل للظلام الدامس، وكلمة (قاموا) توحي بذعرهم وعدم تمكنهم من الحركة في تلك الظلمة المخيفة.

لقد جاء التناسق المعجز بين اللفظ والمعنى، في وصف حال المنافقين في ثلاثة وجوه:

أولها: في وصف اضطراب نفوسهم وحيرتها في مخادعتهم الله.

وثانيهما: في صورتهم وقد ابتعدوا عن الحق والهداية، واشتروا الضلالة بالهدى، ونور الهداية قريب منهم، بحال من يسارع إلى السير في ومضات النور التي سرعان ما تزول، وتخيم الظلمة الرهيبة بعدها، وذلك لأنهم عطلوا جوارحهم ومنعوها أن تعمل فيما خلقت له: فآذانهم صموها عن سماع الحق، وألسنتهم ألجموها عن النطق بالصدق الصادر عن القلوب، وأعينهم أعشوها فلم تعد ترى الهداية.

والوجه الثالث: تصوير ذلك الاضطراب والحيرة بحال من نكبوا بالصواعق والرعود والبروق المذكورة.

لقد سبرت هذه الآيات أغوارنفوس المنافقين، وكشفت عما يعتمل فيها من اضطراب وحيرة وكره للإسلام، وتظاهر بالميل له، وحقد دفين عليه، وصورت تلونهم وخداعهم، واختلاف أفعالهم وأقوالهم مع المؤمنين والشياطين.

إنها لوحة فنية ناطقة، بل إنه بساط سحري يحملنا إلى خبايا تلك النفوس، ويطلعنا على سرائرها، فنراه كأنه مشهد تمثيلي نراه بأعيننا، ونسمعه بآذاننا، وتعيه عقولنا.

إن هذا الوصف المعجز لحال المنافقين المتمثل في اتساق اللفظ والمعنى، والإيحاء المشع للألفاظ، والتشخيص الماثل في الأذهان، والتوافق الدقيق في التمثيل ليسجل عجز الإبداع البشري، لا عن الإتيان بمثله فحسب، بل عن إدراك أبعاد دلالاته، وسبر أغوار مراميه، واستيعاب كنه مقاصده، والوقوف على كل ومضاته المفحمة، والإلمام بكل إشعاعات نفحاته البلاغية المعجزة.

ومن التهديد المروع في التصوير قوله تعالى: ﴿ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ البقرة: ٢٧٩، فالمرابي يعميه الطمع، فهو يجمع المال بكل وسيلة، حتى لو كانت غير مألوفة، ولا يقرها الذوق والعقل والعرف، كما أنه مفتون بالمال، مشدوه بجمعه، منشغل عن غيره في تنميته بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، كما أنه أعمى البصيرة، لا يعي نصائح الناصحين ، فاسد الذوق لا يدرك مهابط الضلالة التي انحدر اليها، وانزلق ولصق فيها،. هذا الإنذار الرباني الذي يهدد بشن حرب وأية حرب، إنها حرب لا عهد للبشر بها، فهل في مقدور أية قوة أن تصمد أمام غضب القاهر فوق عباده؟

ومن المشاهد التشخيصية قوله تعالى: ﴿ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ تصور الملائكة الأطهار وهم يحملون التابوت انصياعاً لأمر الله تعالى.

ومن التصوير ما يجسد الأثر والنتيجة مقارنة بين مشبهين متماثلين كقوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ البقرة: ٢٢٣. فالإثبات والإخصاب والخير في الزرع والأرض، يماثله الإخصاب والإنجاب والنسل لدى النساء، فقد رسمت الصورة وبعديها بأسلوب تصويري جميل، وباختصار بلاغي معجز.

### التصوير الفني في السورة

إننا نقف أمام مشاهد حية، ونرى لوحات فنية ناطقة بالجمال، نسمع فيها الصوت ونرى فيها الحركة واللون، إنها صورة نابضة بالحياة، مفعمة بماء الخط الإعجازي المبدع، الذي يملأ الفكر والمشاعر والأحاسيس على السواء بكل

ألوان الفخامة الجمالية، والنماذج البلاغية الإعجازية، إنها أنماط تتغلل في النفوس الآدمية فتروي ظمأها، وتشبع جوعها، وترسم في وجدانها وأعماقها الإعجاب والإكبار.

إقرأ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾ البقرة: ٢٦٤.

إن عدم تقبل الله تعالى للصدقات التي يتبعها أصحابها بالمن والأذى لمعنى مجرد، وقد ساقته الآية الكريمة في صورة حسية من أثر البيئة، تمثل مشهداً طبيعياً مألوفاً يعرفه الناس جميعاً، وهو الطبقة الخفيفة من التراب فوق حجر صلب سرعان ما ينجرف ويتلاشى عند أول زخة مطر تقع عليه، فيتلاشى معه كل أمل بحدوث أثر للخصب والزرع والنماء في تلك الطبقة الرقيقة التي لا تصمد أمام الخير المتمثل في المطر، والذي يحدث النماء عند نزوله في أرض صالحة كأرض النفس التي تتصدق ولا تمن ولا تؤذي.

وتجري الآية مقارنة برسم صورة مغايرة للصورة الأولى، ولكن الصورة تتمثل هذه المرة بالجنة في ربوة عالية، ترويها الأمطار الغزيرة، فتأخذ حاجتها منها، ويسيل الزائد عن الحاجة إلى الأراضي الواطئة، والمناطق المنخفضة فلا تضرها. وترسم الصورتان أثرين يغاير كل منهما الآخر، فالأثر في الصورة الأولى يكشف عن نفسية مريضة خبيثة، ومثلها بالصخرة التي كشفت بزوال ذرات التراب التي كانت تغطيها، وكانت توهم الناس أنها تزرع والأثر في الصورة الثانية، جاء نماء وأكلاً وخيراً حتى ولو لم يصبها المطر لاستغنت بالطل، وهو القليل منه ليحدث فيها الحياة والخير.

إن هذا التصوير المعجز لنفوس المنافقين والمؤمنين عند الإنفاق، وأثر ذلك الإنفاق في قبوله أو رده، إن في هاتين الصورتين – على قصر التفصيل وإيجاز التمثيل فيهما – ما يغني عن آلاف الأوصاف والشروحات في هذا المضمار، وهكذا جعلت الآيات الشريفة المعاني المجردة مصورة تصويراً فيها تجسيد وتشخيص وحياة.

ولم تقف الآيات الكريمة عند تصوير المعاني المجردة، وإنما صورت الحالات النفسية والمعنوية لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾ البقرة:٢٠٤-٢٠٥.

فهاتان الآيتان الكريمتان تصوران نوعاً من الناس ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب، مظهره عكس مخبره، وما يبدو منه خلاف ما يخفي ويسر، ولكن التصوير يتمثل في الحركة والتصرف، من أجل أن يوضح التباين الظاهر والباطن، ويكشف الفارق بين المظهر والمخبر ومن المعاني التي تصور بصور متحركة قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾ البقرة: ٩٦.

فكلمة (بمزحزحه) تمثل الحركة المتعارف عليها، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾ البقرة: ١٦٨. تمثل كلمة (تتبعوا)، وكلمة (خطوات) الحركة، يقول سيد قطب:

«هي حركة الشيطان يخطو والناس وراءه يتبعون خطواته، وهي صورة حين تجسم هكذا تبدو عجيبة من الآدميين، وبينهم وبين الشيطان الذي يسيرون وراءه ما أخرج أباهم من الجنة»[1].

ومن التصوير الذي يجسد الأمور المعنوية ما يأتي:

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾البقرة: ١٩٧

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾البقرة: ١٣٨

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ البقرة: ٢٠٧

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾البقرة: ٧.

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ البقرة: ٨١.

«فبعد أن تصبح الخطيئة شيئاً مادياً تتحرك حركة الإحاطة، ويصبح الحق والباطل مادتين تستر إحداهما الأخرى»[2].

وكقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾البقرة: ٢٥٧.

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾البقرة: ٢٥٦.

وهكذا نجد أن التصوير في التعبير عن المعاني المجرده نهج قرآني حتى في الأمور التي يجب فيها التجريد كالذات الإلهية.

---

(١) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص ٦٨، دار المعارف بمصر، ط ٨، القاهره.

(٢) المصدر نفسه، التصوير الفني، سيد قطب

يقول تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ورغم الخلافات حول التطرق إلى تفسير مثل هذه الآيات، والجدل الذي دار حولها بين المعتزلة وأهل الكلام وغيرهم من الفرق الإسلامية، إلا أن الشيء الثابت هو أن التصوير في القرآن الكريم نهج بارز، وسمة بينة في أسلوبه ونهجه.

وألوان التصوير في الصورة متعددة ، ومنها ما تحدثه لفظة واحدة كما مر في استخدام لفظة الزحزحة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾، فقد صورت كلمة (الزحزحة) بالصوت والحركة صورة جلية في الأذهان بجرسها الموسيقي المناسب لتلك الحركة. ولا يخفى أن وضوح هذه الصورة التي أحدثتها تلك اللفظة، كان بحسن اختيارها في سياق الآية، بالإضافة إلى جرسها الموسيقي المذكور.

وفي السورة ألفاظ أخرى كثيرة رسمت بمفردها الصورة بما لها من زخم الجرس المصاحب لحسن استخدامها في السياق، وما توحيه من بعد تجسيمي واضح في الأذهان بسياقها ودلالاتها اللغوية والإيحائية وجرسها الموسيقي، من ذلك قوله تعالى: (يخطف) من قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ البقرة: ٢٠. لقد حملت إبداعاً تصويرياً رائعاً، نرى فيه السرعة والخوف والرهبة والخبرة، والقوة الربانة الخارقة تتجلى في رسم هذه الصورة. وفي قوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ﴾ البقرة:٥٧. فهي ترسم في أذهاننا صورة لتلك النغمة المتمثلة في انتشار طبقة واسعة من الغمام فوق رؤوسهم، واستمتاعهم في ظلال تلك الغيوم، وفي قوله تعالى: ﴿ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ البقرة: ٦٠، نتخيل من خلال هذه اللفظة بالذات، قوة التدفق لتلك العيون،

واستمرارية الاندلاق وغزارته،وما تحمله من مفاجآت العطاء الذي يصنع الفرحة، ويزرع الأمل بعد يأس، ويرسم البسمة بعد الوجوم والعبوس.

ومن المقابلات الدقيقة ما ترسمه العبارات من ظلال وإيحاءات متناقضة، بالإضافة إلى طرق التلوين والتلحين، بين المؤمنين والكافرين مثلاً، أو أن ترسم صورة مجسمة لأثرين مغايرين، كما مر في قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ ﴾ بعد رسم الصورة الأولى المغايرة في قوله ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾.

وقد ترسم مشهداً مجسماً كما في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ البقرة: ١٢٧. فهو يرسم صورة لأبي الأنبياء ابراهم الخليل وابنه اسماعيل عليهما السلام، وهما منهمكان في البناء. وفي قوله تعالى: ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ البقرة: ١٦٦. تصور مدى ما بلغ اليأس من نفوس الظالمين لدرجة أن سبل النجاة سدت ، فلم يعد لهم منفذ لمهرب، أو أمل بنجاة، وتقطعت مع ذلك نفوسهم هلعاً ورعباً، وفي قوله تعالى: ﴿ تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ تظهر مشهد الشيطان بكل ما يجسده من خديعة وحيل وشر ومكر يخفي تلك الشرور، يقتفي أثره فريق من الناس خدعوا به وساروا خلفه، وهو يقطع بهم المسافات، مضللا ومخادعاً، ومبتعداً بهم إلى طرق الغواية، بعيداً عن معالم الهدى والصلاح.

وفي قوله : ﴿يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾البقرة: ١٧١ . رسمت الآية مشهداً حياً لاكتمال كل صفات الضلالة والغواية، لهم أبصار لا يرون بها،

وآذان لا يسمعون بها، وقلوب لا تعي ولا تستشعر الخير، فهم لا يحسون ولا يعون في غمرة ضياعهم وضلالهم. وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾البقرة: ٢٣٩ . ترسم صورة المؤمنين وهم يتحفزون لمراقبة الأعداء، ويتوقعون المباغتة، فهم على ظهور خيولهم أو راجلون، وكلهم حيوية وانضباط وتحفز ونشاط. وفي قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ﴾البقرة: ٢٤٣. ترسم لوحة حية لمنظر الجموع الهاربة من الموت الظانة أنها ستنجو منه، ولوحة أخرى بجانبها لمنظر الجموع نفسها وهي جثث هامدة، ولوحة ثالثة للجموع نفسها وهي تحيا من موتها، غير مدركة لقدرة الله تعالى وحكمته.

ومن المشاهد الحية التي ترسمها آيات هذه السورة قوله تعالى: ﴿ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ﴾ البقرة: ٢٦٦. وهذا تجسيد لقوة الضربة، وعنف النيران التي تقوى بقوة الإعصار، فتأكل كل ما تصادفه في طريقها..

ومن المقابلات الجميلة في التصوير قوله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ فكلمة (يمحق) توحي بالهلاك والإتلاف الكلي، يقابلها كلمة (يربي) التي توحي بالإنماء المضطرد، والزيادة المتواصلة، ويعقد المعنى الأول حول الربا المحرم، والمعنى الثاني حول الصدقة التي يتقرب العبد بها إلى الله تعالى.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾البقرة: ١٨٧

وقوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾البقرة: ٢٥٧

ومن المشاهد الحية في تصوير المرابين قوله تعالى﴿ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾البقرة: ٢٧٥. فمن أصابه مس من الجن لا يعي ما يقول وما يفعل، ويأتي بأعمال وأقوال غير مألوفة، وحركات غير معهوده، وسلوك غير إرادي.

## الإعجاز التلاحمي في آيات سورة البقرة

إن هذه السورة الكريمة، وهي أطول سور القرآن الكريم، تشتمل على أنماط شتى من البيان والمعاني والبديع، وهي كالشجرة الوارفة الظلال، غصونها باسقة، مكسوة بأوراق وارفة الظلال، وقطوفها دانية، فيها من كل الثمرات، لها ظل ظليل ـ يتفيأه المسافر، ويأكل من ثمارها، فيذهب جوعه وظمأه.

إنها شجرة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ورغم كثرة فروعها وأغصانها، وتشابك أفنانها وأوراقها، واختلاف ثمارها، فإنها معجزة الخالق في الاتساق، مع التناسق والكثرة مع التلاحم، إن كل ورقة من أوراقها رغم الكثرة الهائلة، والكثافة العظيمة، وكل جزء منها له وضع خاص في شكله وموقعه وميلانه واتصاله وانفصاله، ومجاورته لغيره من الأوراق والأغصان، وكل غصن له خاصية معينة، وتركيبة متسقة مع غيره من الأغصان والفروع والثمار، بحيث يعطي الظل والثمرة والتشابك والاستواء والانحناء على وضع خاص، يختلف عن أوضاع جيرانه مهما كثروا، وبحيث لو وضعت ورقة مكان ورقة أو غصن

مكان غصن، أو انحراف اتجاه ورقة أو غصن عن وضعه الذي جاء في النسيج الكلي، وفي تركيبة البنية الإعجازية لها، لاختل التناسق ولظهر التباين.

وفي هذا السياق يشبه الدكتور أحمد بدوي السورة بالبناء الشامخ فيقول:

«نرى في هذه السورة الكريمة بناء شامخاً يعلو كل بناء، أرجاؤه مترامية الأطراف مبهرة وجنباته تزخر بأنماط متعددة من الجمال والكمال. ورغم ضخامة هذا البناء وسعة أركانه، إلا أنه بني بإحكام معجز، ونسق بصورة تأخذ بالألباب لا ترى في تناسق الألوان اضطرابا، ولا تلمح في مواضع حجارته ونوافذه وشرفاته نبوا أو انزواء، بل ترى نسيجا رغم كثرة ألوانه ينطق بروعة الإبداع، ومن المستحيل إجراء أي تبديل او إضافة إلى هذا الإيجاد المعجز، ومن المستحيل الاستغناء عن اي جزء من أجزائه، فلو حدثت محاولة معارضة عبارة فيه، لهربت تلك المحاولة، ولجأت في النهاية إلى تقليد بيان العبارة، فكانما لم يخلق الله لأداء تلك المعاني غير هذه الألفاظ، وكأنما ضاقت اللغة فلم تجد فيها – وهي بحر خضم- ما تؤدي به تلك المعاني غير ما اختاره القرآن الكريم لهذا الأداء» [1].

ومن الخير أن نورد أمثلة لهذا التلاحم وذلك الترابط والتناسق العجيب في بناء هذه السورة الكريمة.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ البقرة: ١٢٧. نجد أن الدور الرئيسي في رفع القواعد لإبراهيم عليه السلام، والدور الثانوي لابنه إسماعيل عليه السلام، رغم اشتراك الإثنين في البناء، وقد عطف إسماعيل على إبراهيم لتقدم

---

(١ ) من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي، ص ١٠٥، مكتبة نهضة مصر بالفجالةن ط٣، ١٩٥٠، القاهرة

إبراهيم على إسماعيل، قيل أن إبراهيم كان يبني، وابنه إسماعيل يناوله الحجارة [1].

عند قراءة هذه الآية الكريمة، نجدها قد أسندت رفع البناء إلى إبراهيم عليه السلام، واستكملت معناها بالفعل والفاعل والمفعول به، وكأن ذكر إسماعيل جاء مستدركاً في الكلام.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾ البقرة:٤٥.

لم تذكر الآية الشيء الذي طلبت الاستعانة عليه بالصبر والصلاة وترك هذا الأمر دون تخصيص أو تحديد، يدل على أن الصبر والصلاة سلاحان فعالان، وسندان قويان، يتغلب الإنسان بهما على كل صعوبة، بل كل محنة بغض النظر عن حجمها، وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ البقرة: ٢ ــ ٥ .

إن التلاحم بين هذه ثلاث الآيات لتبهر الألباب، فقد سمّت الآية الأولى الكتاب بالكتاب ليعلو على كل الكتب، وجعلت خصائصه كاملة خالية من أي نقص أو عيب، بينما نزهته في الثانية عما يلحق بالأشياء من شكوك، فهو فوق كل شك وريب، وذلك تأكيد لكماله وصحته، وهو كذلك هاد لفئة نقية من الناس، لها خصائصها ومزاياها، ونرى الآية الثالثة تعد مزايا هذه الفئة المنفر دة، وهي إيمانهم بالغيب، وإقامتهم الصلاة، وفي ذلك سياستهم ونهجهم مع الله، والإنفاق في سبيل الله، وفي ذلك نهجهم في علاقتهم بالناس، وبينت

---

(١ ) الكشاف، ج١، ص ٧٤.

الآية الرابعة اتصافهم بالتقوى والهداية الحقيقية. وهكذا نرى التلاحم بين هذه الآيات مزية ظاهرة، وتركيبة ربانية معجزة.

ومن آثار التلاحم الإعجازي في السورة أن بعض ألفاظها له دلالات إيحائية يعجز أي لفظ غير قرآني عن الوصول إليها، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ البقرة: ٨٤ ـ ٨٥ .فقوله تعالى (ثم أنتم هؤلاء) تشير بطريقة خاصة لا يستطيعها أي تعبير إلى عدم التزامهم بما أمروا، وسيرهم عل نهج مغاير، إنها عبارة من ثلاثة مواضيع (ثم أنتم هؤلاء)، ولا نرى في دلالتها اللغوية كل على انفراد، ما يدل على الإيحاء المذكور، إلا أن هذه الصيغة الإعجازية توحي بغضب الله تعالى عليهم لتمردهم على ذلك التكليف الرباني.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ البقرة: ١١١. إنما نرى في قوله تعالى: (تلك أمانيهم)، وهي جملة اسمية خبرية مثبتة، لكن إيحاءاتها النفي لتلك الإدعاءات والتهكم عليها.

ومن صور الترابط في هذه السورة، أن تقع آية صفة لكلمة في آية سابقة لها، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا

يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ البقرة: ٢٦ . فقد جاءت الجملة ( يضل ) صفة لكلمة • مثلاً). وقد تأتي آية توكيد لفكرة آية سابقة كقوله تعالى:﴿ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة٩٤-٩٥ . وقد تكون آية رداً على سابقتها ما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٨٠ – ٨١.

ومن صور الربط المحكم بين الآيات أن تأتي الآية تعليلاً وتدليلاً لسابقتها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ البقرة: ١٦٣ــ١٦٤.

يقول الدكتور أحمد بدوي في موضوع الصلات بين الآيات: «ولكنني أشير إلى أن إدراك هذه الصلة يتطلب في بعض الأحيان تريثاً وتدبراً يسلمك إلى معرفة هذه الصلة وتبنيها، ولكنك تصل – ولا ريب – إلى وثاقة هذا الارتباط ومتانته، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ

قَوْلِهِمْۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة:١١٣ــ ١١٥ .

فقد تبدو الصلة منفصمة بين هذه الآيات، ولكنك إذا تأملت الآية الأولى، وجدت فيها حديثاً عن الذين لا يعلمون ولايتلون الكتاب، وهؤلاء لا يعترفون بشيء مما أنزل الله، فهم يسعون إلى تقويض أسس الأديان جميعاً ، لا فرق عندهم بين دين ودين، وهم لذلك يعملون على أن يحولوا بين المسلمين وعبادة الله، ويسعون في تخريب بيوت عبادته، ومن هنا صح هذا الاستفهام الذي يدل على أنه لا أظلم من هؤلاء الذين لا يعلمون، وارتباط الآية الثالثة بما قبلها، بدلالتها على أن عبادة الله ليست في حاجة إلى مسجد يقام، بل لله المشرق والمغرب، فحيثما كنتم ففي استطاعتكم عبادة الله لأن ثمة وجه الله[1].

**ويقول السيوطي:**

«الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن، هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء العليل، بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على

(١ ) من بلاغة القرآن، د. أحمد أحمد بدوي، مكتبة النهضة، مصر بالفجالة، ط٣، ١٩٥٠.

حكمةالربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة»[1].

من هنا نرى أثر الإعجاز التلاحمي في آيات هذه السورة الكريمة في صور شتى، وأنماط متعددة، ومجالات متنوعة، ففي قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ﴾ البقرة: ٧ ، فقد عبر في جانب القلب والسمع بالختم، وفي جانب البصر بالغشاوة، هذا التعبير لم يأت جزافاً بل جاء لمعنى سام وحكمة ربانية رائعة، وحجة دامغة، ذلك أن آفة البصر معروفة، إذ إن غشاوة العين معروفة، مما يدل على مدى عجزهم عن إدراك آيات الله تعالى بتلك الجارحة التي لم تعد ترى الحق حقاً. وأما القلب والسمع فلا تدرك آفتهما إلا بصعوبة، ولذلك فقد صور لنا موانعهما عن الاستجابة للحق بصورة الختم. وعبر في جانب القلب والسمع بجملة فعلية تفيد التجدد والحدوث، وفي جانب البصر بجملة اسمية تفيد الثبات والاستقرار، لأنهم ما اعتادوا قبل أن يبعث محمد ﷺ نبياً، أن يجابهوا ببرهان مبين، وحجة دامغة[2].

وأما ما يدرك بالبصر من آيات الله ومظاهر قدرته، فقد كان قائماً في السموات والأرض والأنفس، ويصح أن يدرك قبل الرسالة النبوية، وأن يستدل به المتبصرون والمتدبرون على وجود ربهم وحكمته، فلم يكن عماهم عن آيات الله القائمة حادثاً متجدداً، بل هم قد صحبهم العمى من بدء وجودهم، فلما دعوا إلى التبصر والتدبر صمموا على ما كانوا عليه من عمى.

وقد قدم القلب على السمع في الذكر في سورة البقرة بينما نجده قد قدم السمع في سورة الجاثية فقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

---

(١) الإتقان، ج٢، ص ١١٠، السيوطي، ط مصطفى الباب الحلبي ١٩٥١م/ ١٣٧٠هـ.

(٢) من محاضرة للأستاذ توشينا بكلية الشريعة بجامعة أم درمان، السودان، بتصرف.

وذلك لأنه سبحانه في سورة الجاثية قد ذكر الختم معطوفاً على قوله ﴿ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ ومن اتخذ إلهه هواه يكون أول ما يبدو منه للناس، ويعرف هو إعراضه عن النصح، ولى رأسه عن استماع الحق، فكان مظهر عدم السماع منه أول ما يبدو للناظرين، ولذلك قدم السمع على القلب.

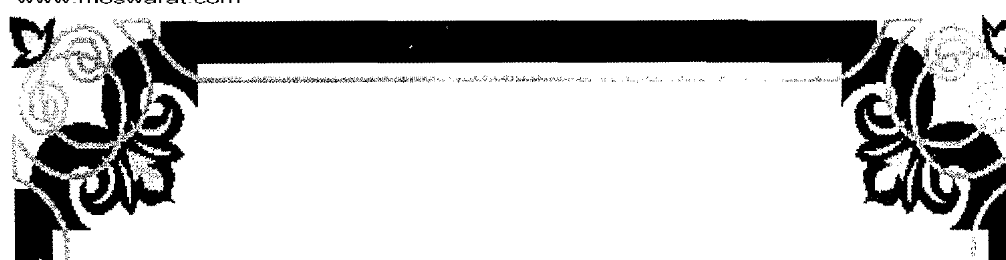
وأما الآية في سورة البقرة ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾، فقد جاءت إثر الآية المختومة بقوله: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، والإيمان تصديق يقوم على الحجة والبراهين وإدراك الحجة والبراهين إنما هو بالقلب، فكان التعليل المتصل الواضح لنفي الإيمان، أن قلوبهم مغلقة لا تنفذ إليها حجة ولا يتسرب إليها نور البرهان، لذلك قدم القلب على السمع.

أما ذكر لفظة (هم) في قوله (وبالآخرة هم يوقنون)، فلم يذكرهم في قوله ومما رزقناهم ينفقون لسببين: أولهما لأن وصف أيقانهم بالآخرة أعلى من وصفهم بالإنفاق، فاحتاج هذا إلى التأكيد ، ولم يحتج ذلك إليه، وثانيهما لأنه لو ذكر(هم) هناك لحصل فيه قلق لفظي إذ يكون التركيب ومما رزقناهم هم ينفقون[1] .

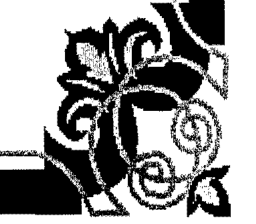
أما اختيار الجملة الإسمية في قوله: ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾، واختيار الجملة الفعلية في قوله ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ، فتلاحظ انه عبر عن القلب والسمع بجملة فعلية، وعن البصر بجملة إسمية، وسبب ذلك أن الجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث، والاسمية تفيد الثبات والاستقرار، لأنهم قبل الرسالة ما كانوا يسمعون صوت نذير وصياغة براهين، فقد جاء ذلك بعد ظهور النبي عليه السلام.

---

(١ ) من محاضرة بكلية الشريعة بجامعة أم درمان، السودان، د. توشينا.



## ٢) علم المعاني في سورة البقرة



# الإيجاز

عرف العرب بالإيجاز في كلامهم، ودليل ذلك هذا التراث الضخم من الحكم والخطب التي عرفتها الساحة الجاهلية، واستمر زخمها حتى نهاية العصر العباسي، ولعل من أسباب ذلك فطنة العربي وسرعة بديهته، وصفاء ذهنه، وأثر البيئة الصحراوية في بساطتها وصفاء سمائها، ووضوح هضابها ووهادها؟ ولعل من أسباب ذلك أيضاً ما قدر الله فيهم من تحمل تبعات جسام، يحملونها الى العالم بلغة اختيرت دون سائر اللغات العالمية، بسماتها البلاغية المعجزة، وخصائصها البنيوية المقتدرة، بتقدير خالق الإنسان، ومعلمه البيان.

«وأول الفروق بين اللغات السامية والآرية أن الأولى جماعية ، والأخرى تفصيلية»[1].

ويجرنا الإيجاز إلى الحديث عن قضية الكتابة في الجاهلية، وبغض النظر عن أن العرب قد عرفوا الكتابة واستخدموها شعراً ونثراً [2]، أو أن الرواية الشفوية هي التي استخدمت في الشعر الجاهلي، كما ذهب إليه الفريق المتبني لقضية الانتحال[3].

ولعل انتشار الأمية ، وعدم استخدام الكتابة أدى إلى الاعتماد على الذاكرة فشحذت، وعلى الأذهان فعقلت، وعلى الحواس فأرهفت، وهذا الوضع يحتاج إلى الإيجاز أكثر مما يحتاج إلى الإطناب.

---

(١) المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبدالفتاح لاشين، دار المعارف ١٩٧٨، ط٣.

(٢) أنظر مقالة «الكتابة في الجاهلية» أ.د. صالح آدم بيللو.

(٣) «في الشعر الجاهلي»، طه حسين، وكذلك « في الأدب الجاهلي، لطه حسين الكتاب الثاني، ص ٩٢، ط١١، دار المعارف، مصرن ١٩٧٥.»

«فالكلام الموجز أيسر حفظاً، وأقرب تذكرا من غيره، وأتى الإسلام فامتدحه، ودعا إليه تدوين الرسائل، إذ كان الحصول على القراطيس أمراً شاقاً، فقد روي أن عمر بن عبدالعزيز، كان إذا طلب منه قراطيس أمرهم بالإيجاز، والاكتفاء بما عندهم منها، ففي الإيجاز بلاغة وقصد»[1].

وقد وصف الجاحظ قول رسول الله ﷺ بالإيجاز فقال: «كلامه صلى الله عليه وسلم هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه...».

وقد تكلم رجل عند رسول الله ﷺ فأطال، فقال له: كم دون لسانك من حجاب؟ فقال: شفتاي وأسناني - فقال له الرسول ﷺ: «إن الله يكره الانبعاق، أي الاندفاع في الكلام، فنضر الله وجه. رجل أوجز في كلامه واقتصر على حاجته»[2].

أما الإطناب فكان له مريدوه ورجاله ، قيل لإياس: لا عيب فيك إلا أنك تطيل. قال: أخيراً تسمعون أم شراً؟ قالوا: خيراً، قال: فزيادة الخير خير. روى ذلك الجاحظ وعقب عليه بقوله«وليس الأمر كما قال إياس، فإن للكلام غاية، ولنشاط السامع نهاية، وما فضل على مقدار الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال، فذلك هو الهذر وهو الخطل، وهو الذي سمعت الحكماء يعيبونه»[3].

ومن رجالات الإيجاز جعفر بن يحيى وسهيل بن هارون، قال جعفر: «إن استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا» ، وقد عرفت التوقيعات في العصر الأموي، وانتشرت في العصر العباسي، وكلف الناس بها، وحفظها

---

(١) البلاغة العربية في دور نشأتها، د. شوقي ضيف، ص ٥٤.

(٢) البيان والتبيين، الجاحظ، ج١/ ٩٩.

(٣) البيان والتبيين، ج١/ ٩٩.

بعضهم عن ظهر قلب، ومن أمثلتهاتوقيع أبي جعفر المنصور في كتاب رجل شكا له بعض عماله.

«قد كثر شاكوك وقل شاكروك، فإما اعتدلت وإما اعتزلت»[1]. ومن التوقيعات المشهورة :«داو جرحك لا يتسع» ومنه : «طهر عسكرك من الفساد يعطك النيل القيادة».

ولعل هذه التوقيعات وما فيها من تركيز الفكرة وخلاصة التجربة، ووضوح المعنى، واختصار الطريق بالعبارة الموجزة، من مظاهر تقليد الكتاب لأسلوب القرآن الكريم. فهو معجزة الدهر في هذا الصدد [2].

وقد عرف الأقدمون الإيجاز بالحذف في بدء التدوين، عرف عند سيبويه وأبي عبيدة والفراء، وعرف عند الجاحظ إيجاز القصر، حيث قال معلقاً على قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «قيمة كل إنسان ما يحسنه» ، علق الجاحظ قائلاً: «.. فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة. لوجدناها كافية... وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره» [3].

وقد بحث الرماني (ت ٣٨٦هـ) الإيجاز، وقسمه إلى نوعين: إيجاز حذف وإيجاز قصر، أما إيجاز الحذف فمعروف منذ عهد سيبويه وأبي عبيدة، ولكن الرماني أضاف إلى إيجاز الحذف ونقل له من القرآن الكريم، وعقد مقارنة بين قوله تعالى: «ولكم في القصاص حياة...» وبين قولهم «القتل أنفى للقتل» [4].

وقد امتازت سورة البقرة بأنماط متعددة من الإيجاز والإطناب، كما نرى فيما يأتي:

---

(١ ) النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ص ٧٧.

(٢ ) دفاع عن البلاغة ٩٩، أحمد حسن الزيات.

(٣ ) البيان والتبيين ، الجاحظ، ج١/ ٨٣.

(٤ ) النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ص ٧٧.

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾البقرة: ٢٤

في قوله تعالى: (فاتقوا النار) إيجاز قصر، والإيجاز هو جمع المعاني الكثيرة تحت اللفظ القليل مع الإبانة والإفصاح.

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ إيجاز حذف أيضاً، وإيجاز الحذف يكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر، مع قرينة تعين المحذوف، لأن من اتقى النار عصم نفسه عن جميع الموبقات التي يطول تعدادها، وترك المكابرة والعناد.

(ولن تفعلوا) اعتراض يفيد التأكيد، لأن الخالق العظيم يعلم عجزهم وضعفهم، ويعلم مسبقاً عدم قدرتهم على ذلك.

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ ﴾ البقرة: ٩٦ . في تنكيره تعالى للحياة يشير إلى أنهم يحرصون على أي نمط من أنماط الحياة التي سيحيونها، فإذا كان الكفار الذين يحرصون على الحياة وهم لا يؤمنون بالآخرة يلامون، فاليهود الذين يؤمنون بالآخرة وهم أهل كتاب أولى باللوم والتوبيخ.

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢ ﴾البقرة: ١٥٤. ففي قوله تعالى (أموات)حذف المبتدأ ليدلل على أهمية الخبر، لأنهم ما كانوا يتصورون أنهم أحياء.

﴿ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ البقرة: ١٦٥. فقد حذف جواب لو، وهو كثير شائع في كلام العرب، وورد في القرآن كثيراً، قال أبو تمام:

**لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت      له المنية بين السمر والغضب**

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ ﴾ البقرة: ١٧١، وهنا إيجاز حذف تقديره مثل داعي الذين كفروا، ولم يصرح بالداعي وهو الرسول عليه السلام، تمشياً مع الأدب الرفيع في حسن التلطف بالخطاب، والتهذيب الذي يجب أن يتسم به الشعراء والكتاب (١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ البقرة: ١٧٢. في هذه الآية إيجازان جميلان بالحذف وهما: حذف مفعول (كلوا)، وحذف جواب «إن» الشرطية، أي فاشكروا، وحذف جواب الشرط شائع في كلام العرب.

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ ﴾ البقرة: ١٧٧، وهذا إيجاز حذف بحذف المضاف، الإيجاز في آية القصاص ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ البقرة: ١٧٩ ، حيث نرى إعجازاً بيانياً مفحماً، ومما عرف عن العرب أنهم قالوا«القتل أنفى للقتل»، واعتبروا ذلك قمة الإيجاز وسقف الفصاحة فيه، فجاءت آية القصاص هذه لتكون أكثر إيجازاً، وأصدق تعبيراً، وهي أربع كلمات «في، أل، القصاص، حياة» ، والعبارة التي اعتبروها قمة في الإيجاز ست هي:

«ال، قتل أنفى وضميره لأنه اسم مشتق، اللام، قتل، ولأن حروفها الملفوظة الثابتة وقفاً ووصلاً أحد عشر حرفاً، وحروف قول العرب أربعة عشر حرفاً.

﴿ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ﴾ البقرة: ٢٤٣، في الآية إيجاز حذف تقديره فقال لهم الله موتوا فماتوا ثم أحياهم، فحذف تعالى (فماتوا).

---

(١ ) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش، ج١، دار الإرشاد، حمص، سورية، ط٤، ١٩٩٤.

وسر فصاحة الحذف أنه يدل على مطاوعة كل شيء للإرادة الإلهية. الإيجاز في آية الكرسي: تضمنت آية الكرسي من الإيجاز ما لا مطمح فيه لتقليد أو محاكاة، وفيها ما يسمى بالفصل في علم المعاني، وهو حذف العاطف، للدلالة على أن كل صفه من صفات هذا الملك العظيم مستقلة بنفسها، وذلك على النحو التالي: [1].

الجملة الأولى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾. وقد بين فيها قيامه سبحانه بتدبير الخلق، وتنسيق شؤونهم، وأحكام معايشهم، وهيمنته عليهم دون أن يكون ساهياً عن ذلك الخلق طرفة عين.

الجملة الثانية ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾؛ وقد بين فيها أنه مالك لما يدبره، غير منازع في ملكه.

جـ- الجملة الثالثة: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾، وقد بين فيها كبرياء شأنه، وتضاؤل الجميع أمام قدرته التي لا تحد.

الجملة الرابعة: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾، وقد صور فيها إحاطته بأمور الخلق وأحوالهم، بحيث لا يعزب عنه شي.

هـ- الجملة الخامسة﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ إلى آخر الآية، وقد نوه فيها بتعلقه بالمعلومات كلها، وكل شيء عنده بمقدار.

إيجازالإيجاز في آية الكرسي أنها اشتملت على ما لم تشتمل عليه آية من آيات الله سبحانه في سبعة عشر موضعاً، فيها اسم الله تعالى ظاهراً في بعضها، ومستكناً في بعضها الآخر، وذلك على التريب الآتي:

---

(١) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش،

١- الله ٢- هو ٣- الحي ٤- القيوم ٥- ضمير لا تأخذه ٦- ضمير له ٧- ضمير عنده ٨- ضمير بإذنه ٩- ضمير يعلم ١٠- ضمير علمه ١١- ضمير شاء ١٢- ضمير كرسيه ١٣- ضمير يؤده ١٤- وهو ١٥- العلي ١٦- العظيم ١٧- الضمير المستكن الذي يشتمل عليه المصدر وهو حفظهما، فإنه مصدر مضاف إلى المفعول، وهو الضمير البارز، ولا بد له من فاعل وهو الله، ويظهر ذلك عند فك المصدر فيقول: ولا يؤوده أن يحفظهما هو، وقد حاول أحد الاعلام أن يوصلهما إلى واحد وعشرين موضعاً، ويعتبر الأسماء المشتقة الواردة فيها تحتاج إلى ضمير كالحي والقيوم والعلي والعظيم فيكون كل واحد باثنين، وبذلك تضاف أربعة مواضع إلى المواضع السبعة عشر، فيكون المجموع واحداً وعشرين موضعاً[(١)].

الحذف بالاختصار في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ البقرة: ١٩٧.

أي وقته[(٢)]. ومن الإيجاز بحذف الجملة[(٣)]. قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ البقرة: ٦٠. والتقدير فضرب فانفجرت، فحذف السبب وذكر المسبب، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ البقرة: ٩١ ، فقوله تعالى (بما أنزل الله) كناية عن القرآن، وسر عدله بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنايته، فقد جعل دعاءهم إلى الإيمان

---

(١) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش،

(٢) المعاني في ضوء أساليب القرآن. د. عبد الفتاح لاشين نقلا عن مشكل القرآن للفراء.

(٣) المراد بالجملة التامة التي تكون جزء من كلام آخر.

به دعاء إلى الشيء بحجته، وبذلك أخرج الدليل والدعوى في لفظ واحد[1] ، وفي هذه الآية حذف مقصود وتقديره. آمنوا بما أنزل الله«على محمد»، ولعل إلقاء هذا الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضغانهم، ويثير أحقادهم، فيؤدي عكس ما قصده الداعي من التأليف والإصلاح[2] ، ويشير هذا الحذف أيضاً إلى خصوصية الإسلام في شموليته، وأنه ناسخ للأديان كلها ولا يفرق بين جميع الأنبياء.

وقوله تعالى: «نؤمن بما أنزل علينا» توضيح لموقف اليهود بإنكارهم للقرآن الكريم، وان اقتصار إيمانهم بالتوراة إشارة إلى عدم إيمانهم بكل ما أنزل على غيرهم، وتحاشي ذكر ذلك على ألسنتهم، محاولة إبعاد ذلك صراحة عنهم، وكلمة بما وراءه إيجاز يشير إلى كل الكتب غير التوراة التي نزلت بعده.

وفي قوله«فلم تقتلون أنبياء الله من قبل» فيه اختصار الكلام إسراعاً وذلك باختصار الرد عليهم باتهامهم بأنهم جروا على عادة من سبقهم بقتل الأنبياء.

«فذبحوها وما كادوا يفعلون» فيه إيجاز حذف، وواضح من السياق أن التقدير «فطلبوا هذه البقرة الجامعة للأوصاف السابقة وحصلوها، فلما اهتدوا إليها ذبحوها»[3] .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(١) النبأ العظيم، د. محمد عبدالله دراز، ص ١٢٠، دار الثقافة، الدوحة.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تفسير الصابوني، ج١، ص ٥٤.

البقرة:١٢٧–١٢٩. نرى هنا إعجاز بالحذف تقديره: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان ربنا..، وشتان ما بين السياق القرآني بالحذف بدون كلمة يقولان التي قدرناها، وبين الآية بدون ذكرها، فلو ذكرت (يقولان) لكان السياق حكاية، وفي الصورة القرآنية حياة، وهذا الفارق الكبير، إن الحياة في النص لتثبت متحركة حاضرة، وسر الحركة كله في حذف لفظة واحدة، وذلك هو الإعجاز [١]. ومن الإيجاز قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ البقرة: ٧٣ ، أي فضربوه ببعضها فحيي، فقلنا كذلك يحي الله الموتى، وهذا حذف أكثر من جملة في قوله تعالى: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ البقرة: ٥٤ .

ومن إيجاز الحذف قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ البقرة: ٢١٠ أي عذاب الله أو أمره [٢].

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ البقرة: ٢١٠.

في الآية حذف تقديره (أمرالله)، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء فلا يعقل أن تتخيل العقول مجيء الله كمجيء الإنسان، ومن هنا (فأمر) محذوفة، وخاصة أن التجريد واضح في قوله تعالى في ظلل من الغمام.

يكمن إعجاز الحذف في هذه المفاجأة المفزعة ويقصم الظهور ويشده العقول يأتيهم الله في ظلل ، فهذا القصف البياني الماحق بظاهر هذه الآية هو

(١ ) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص ٥١، دار المعارف بمصر، ط٨، القاهرة.
(٢ ) الإيضاح للقزويني، ج١، ص ٣٠٠.

سر إعجاز الحذف فيها، فأي قلب لا ينخلع هلعاً بهذا التجسيم المخيف في ظلل من الغمام، وأي تماسك لا يتلاشى عندما يفجأ بقوله يأتيهم الله، فهل هناك حذف أبلغ في النفوس، وأنكى للقلوب من هذا الحذف على هذه الصورة المعجزة؟.

ذهب الإمام الفخر إلى معنى قوله أن يأتيهم الله أي يأتيهم أمره وبأسه[١]، فهو على حذف مضاف مثل قوله واسأل القرية، وهذا مجاز مشهور.

ومذهب ابن كثير هو مذهب أهل السلف وهو عدم التأويل على سبيل التفصيل إلى الله تعالى، يقول ابن كثير في تفسير الآية: «لا يقول تعالى مهددا الكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله» يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين كقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ويشفع الله محمداً، ويأتي في ظلل من الغمام، بعدما تنشق السماء الدنيا وينزل من فيها من الملائكة، وينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة ولهم زجل من تسبيحهم »[٢].

لكن عبد القاهر الجرجاني يدعو ذلك تفريطاً ونبوا عن أقوال أهل التحقيق، حيث يقول «فإذا قيل لهم إن الإتيان المجيء انتقال من مكان إلى مكان، وصفة من صفات الأجسام، وأن الاستواء إن حمل على ظاهره لم يصح إلا في جسم يشغل حيزاً ويأخذ مكاناً، والله عز وجل خالق الأماكن والأزمنة ومنشئ كل ما تصح عليه الحركة والنقلة، والتمكن والسكون والانفصال والاتصال والمماسة والمحاذاة، وإن المعنى على (إلا أن يأتيهم أمر الله) إذا قلت ذلك للواحد منهم رأيته إن أعطاك الوفاق بلسانه، فبين جنبيه قلب يتردد في

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ج١، ص ١٢٠.

(٢) تفسير ابن كثير، جذ، ص١١٧، دار العلم، بيروت، لبنان.

الحيرة ويتقلب ، ونفس تفر من الصواب وتهرب.. وإنما غرضي بما ذكرت، أن أريك عظم الآفة على الجهل بحقيقة المجاز وتحصيله»[1].

## الإطناب

للإطناب مواضع لا تصلح لغيره تبعاً للموقف الذي يقتضيه، ووفقاً للحالة التي تناسبه.

وقد ورد الإطناب والتفصيل في كثير من الآيات في هذه السورة، ومن هذه المواطن ما يأتي:

ورد في قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ٧٩، فكلمة (أيديهم) إطناب ويفهم المعنى بدونها أن الكتابة لا تكون إلا بالأيدي، ولكن موطن الفصاحة في استخدامها أنها تسجل الجرم المشهود على الجاني وتأكيد فعلته، ومحاولة حصره في زاوية المحاسبة، استحضاراً لما يمكن أن يبدر منه من نفي التهمة، ورسما لمشهد الجريمة التي تدينه، وهذا أسلوب درج عليه العرب، فيقال: أنت قلت هذا بلسانك، أنت فعلت هذا بيمينك، وفي المثل العربي المشهور«يداك أوكتا وفوك نفخ».

وهناك نوع من أنواع الإطناب يسمى (التتميم) كقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ البقرة: ١٧٧، ففي قوله تعالى: وآتى المال تم المعنى عنده، وجاءت كلمة على حبه، وقد تم المعنى قبلها فهي تتميم، وهي لبيان فضل المحسن المتصدق الذي ينفق أمواله رغم أن الإنسان فطر على حبه، فهو يؤثر حب الإنفاق تقرباً إلى الله على حبه للمال.

---

(١ ) أسرار البلاغة، عبد القادر الجرجاني، ص ٣١٣، ٣١٤، شرح محمد رشيد رضا.

ونلاحظ التكرار في بعض آيات هذه السورة، وللتكرار غرض بلاغي نلاحظه فيما يأتي: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ البقرة: ١٤٤، ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ البقرة: ١٤٩، ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ البقرة: ١٥٠.

لقد دأب المرجفون على ترويج الإشاعات، واغتنموا كل فرصة للتشكيك في القبلة بعد أن نزلت آية التحويل، فأراد الله تعالى أن يدحض افتراءاتهم، وأن يعيد الثقة في نفوس المسلمين للتشبث بقبلتهم، فكان هذا التكرار زرعاً لبذور الثقة في النفوس، وطرداً لكل ما يمكن أن يكون قد علق بالقلوب من وساوس بعد الضجة الدعائية التي أثارها أعداء الإسلام.

ومن جهة أخرى نلحظ أن هذا التكرار يستخدم كثيراً عند مخاطبة اليهود، بينما تكتفي الآيات بالتلميح والإيجاز في القول، عند مخاطبة كفار مكة من العرب. وفي هذا المجال اختلفت الآراء. لقد فتح القرآن أبواب مجادلة اليهود ومعاتبتهم وتأنيبهم، وتكررت صور التذكير بنعم الله، وصور نكران اليهود هذه النعم، وتذكيرهم بما اقترفت أيديهم من جرائم، ونعم الله عليهم بالتجاوز عنهم، ولعلهم يثوبوا إلى رشدهم، وهذا التكرار وتلك الإعادة لها ما يبررها.

خاطبت الآيات بني اسرائيل على النحو المذكور:

﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ البقرة: ٤١، ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ البقرة: ٤٢ ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ البقرة: ٤٠.

وهناك عشرات الآيات على هذه الشاكلة، وان التكرار الذي خاطب الله تعالى به اليهود، اختلف في تأويله فيما يتعلق باستغلاق أذهانهم أو مستوى تفكيرهم.

يقول مصطفى صادق الرافعي«وقد خفي هذا المعنى والتكرار على بعض الملاحدة وأشباههم، ومن لا نفاذ لهم في أسرار العربية ومقاصد الخطاب، والتأني بالسياسة البيانية إلى هذه المقاصد، فزعموا به المزاعم السخيفة، وأحالوه إلى النقص والوهن، وقالوا إن هذا التكرار ضعف وضيق من قوة وسعة، وهو – أخزاهم الله – كان أروع وأبلغ وأسرى على الفصحاء من أهل اللغة والمتصرفين فيها، ولو أعجزهم أن يجيئوا بمثله، ما أعجزهم أن يعيبوه لو كان عيباً»(١).

أما الجاحظ فله رأي آخر يقول:

«ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني اسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام»(٢).

أما مصطفى صادق الرافعي فينفي عن اليهود الغفلة والغباء، ويرى أن القرآن خاطب العرب واليهود في المدينة، وظهر في اليهود الشعراء والفصحاء

---

(١) إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي، ص ١٩٤، مطبعة الاستقامة، ط٥، ١٣٧١ هـ، ١٩٥٢م.

(٢) الحيوان، ج٢، ص ٤٦، الجاحظ.

كالسموأل وكعب بن الأشرف، ورغم أن العرب لا يعدون اليهود منهم، إلا أن الدار واحدة، يقول:

«بيد أنهم أخطأوا وجه الحكمة فيه[1]، فإن اليهود لم يكونوا من الغلظة والجفاء والاستكراه بحيث وصفوهم أو بحيث يجوز ذلك في صفتهم، وإن فيهم المتكلمين ، وإن منهم الشعراء، والخطاب في القرآن كان يسمعه العرب واليهود جميعاً، فلا هؤلاء ينكرون من أمره ولا أولئك»[2].

وأراد الرافعي أن يدعم رأيه بأن النظام القرآني في أسلوب القرآن جاء ليعجز العرب واليهود، فكان في نمط مساير لأنماط الأدب العبراني والأدب العربي، يقول الرافعي: «فانه في الحقيقة سر من أسرار الأدب العبراني القديم أن تجتمع له رشاقة العبارة وحسن المعرض، ووضوح اللفظ، ووضاحة التركيب، وإبانة المعنى، وتكرار الكلام، لكل ما يفيد التكرار، وتوكيداً ومبالغة وإبانة وتحقيقا ونحوها، ثم استعمال الترادف في اللفظ والمعنى ، ومقابلة الأضداد وغيرها، مما هو في نفسه تكرار آخر للمحسنات اللفظية وتحسين للتكرار» المعنوي »[3].

ويرى الرافعي بأن أول من أوحى بفكرة أن محمدا عليه السلام (شاعر) هم اليهود يقول:

«وإنا لنظن أن تهمة النبي ﷺ، بأنه شـــاعر، لم تكن ابتداء إلا من قبل بعض اليهود»[4].

---

(١ ) يقصد أولئك الذين يتهمون اليهود أن لا سليقة لهم كالعرب، وهو ما ذهب إليه الجاحظ.

(٢ ) إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي، ص ١٩٥، مطبعة الاستقامة، ط٥، ١٣٧١ هـ ، ١٩٥٢م.

(٣ ) إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي،

(٤ ) المصدر نفسه.

ولما كنا بصدد رأيين متناقضين في قضية ذكاء اليهود أو غبائهم، أحد الرأيين للجاحظ يصفهم بالغباء والغفلة، والرأي الآخر للرافعي، ينفي عنهم ذلك كان العدل أن نحتكم إلى آيات السورة الكريمة لنجد فيها ما يشفي، ويكون حكمها الفيصل فيما اختلف فيه الباحثون والعلماء وأصحاب الرأي، ممن خاضوا غمار هذا المضمار،نحتكم إلى الآيات لنرى إن كان هذا التكرار وهذه الإطالة، وهذا الإطناب في مخاطبة بني إسرائيل في الأسلوب القرآني الذي نراه في آيات هذه السورة له ما يبرره، أم لا. ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾البقرة:٤١، كانوا أول من كفر بالقرآن من أهل الكتاب، ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة:٤٢،يتهمهم بخلط الحق بالباطل والافتراء والكذب على الله بتحريف التوراة.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ البقرة:٤٤، يطلبون من غيرهم فعل الخير ويفعلون الشر، وهذا تجريح وتقبيح لأعمالهم وأقوالهم. وصفهم القرآن بالغفلة المفرطة تبكيتاً وتقريعاً وتوبيخاً[1].

ذكرت آيات أنهم كفروا بنعم الله وتنكروا لها: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ البقرة: ٦١،

عبادتهم العجل ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ البقرة: ٥١، عصيانهم المستمر وعودتهم المستمرة إلى الكفر والضلال.

(١) تفسير الصابوني، ج١، ص ٤٢، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان.

غضب الله عليهم ومسخهم قردة: ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ البقرة:٦٥، عنادهم ومكابرتهم ولجاجهم ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ البقرة:٨٥، وصفهم بالجفاء وقسوة القلوب: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾البقرة: ٧٤، تحريفهم التوراة: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ البقرة: ٧٩ ، وصفهم بالجهل : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ البقرة: ٧٨، يؤكد غفلتهم بادعائهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾البقرة: ٨٠، لقد أدانت الآيات الكريمة اليهود، وأصدرت حكمها واضحاً جلياً، ورجحت بذلك رأي الجاحظ الذي دمغ اليهود بالغفلة، وردت من جهة أخرى رأي الرافعي ورفضته، لأن كل من كانت هذه صفاته، لا يمكن أن يكون فصيحاً بليغاً. ومن هنا كان التكرار والإطناب في مخاطبتهم، لاتصافهم بهذه الصفات التي ذكرها الجاحظ.

ومن التكرير قوله تعالى: ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ البقرة: ٦٩ - ٧١ ، هذا التكرار على لسان اليهود، في كثرة أسئلتهم عن البقرة، يدخل في باب الإطناب، ولكنهم عرفوا

باللجاجة والمكابرة والعناد، قال رسول الله ﷺ: «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم»[1].

من التكرير الذي يراد به تأكيد ذمهم قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴾ البقرة: ١٥٩،

ومن التكرير قوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ البقرة: ١٩٦، وهنا تكرير آخر، فبعد أن ذكرت الآية العدد ثلاثة وسبعة، قالت: تلك عشرة كاملة فهي تكرير لعشرة، ثم ذكرت كلمة (كاملة)، وهذا توكيد ثالث.

ومن التتميم قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ البقرة: ١٧٧، ، والضمير للطعام مع اشتهائه، وقوله تعالى: البقرة: ١٩٦، لإزالة توهم الإباحة[2].

إن التكرار من أهم عناصر بلاغة القرآن الكريم، وله أنماط متعددة، وهو يحاول تنبيه مستغلق الأفكار، وإحياء جدب الأفهام، وتثبيت الحقائق التي تساق، وتوكيد القضايا المطروحة والمسائل المتداولة.

ويقسم الخطابي التكرار إلى قسمين: تكرار مذموم وتكرار محمود، فالأول من فضول الكلام، ولا معنى له، والثاني وهو المحمود وتكرار القرآن منه، وهو ما كان ضرورياً وأساسياً في المعنى[3].

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الأول، محيي الدين درويش.

(٢) الإيضاح، القزويني، ج١، ص ٣١٨.

(٣) الإعجاز البلاغي، د. محمد محمد أبو موسى، ص ٦٤، مكتابة وهبة، ١٩٨٤م.

ومن التكرار في السورة ما هدفه استثارة الإحساس بوجود الله وقدرته، وعجز الانسان وضعفه، ومن ذلك قوله تعالى في آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ البقرة: ٢٥٥.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ البقرة: ٢٠، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ البقرة: ٢٩.

«هذه الكثرة الهائلة التي تجدها في المصحف (بقصد التكرار)، تؤكد وتقرر هذا المعنى، لا تستطيع أن تزعم أنها زائدة عن الغرض، لأن تنبيه الملكات وبعثها من الغفلة والجمود أمر صعب جداً، والنفوس في همودها وقرارها على الغفلة في هذا الجانب أمرها عجيب، والعجب منه لا ينقضي »[1].

ويقارن بين التغاير في صور التكرار قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴾ البقرة: ٤٩، وبين ما ورد في سورة ابراهيم: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ ﴾ إبراهيم: ٦، فالفارق بين الآيتين إسقاط الواو من الآية الأولى وإثباتها في الثانية، وإسقاطها يدلل على أن التذبيح هو نفسه سومهم سوء العذاب، فهما تحددان شيئاً واحداً، بينما في

---

(١) الإعجاز البلاغي، د. محمد محمد أبو موسى، ص ٦٤، مكتابة وهبة، ١٩٨٤م.

الآية الثانية (ويذبحون) تدل على أن نوعين من العذاب قد وقعا بهم، وقد فصل التعذيب لأن موسى عليه السلام يذكرهم بنعم الله عليهم، فيذكر بنوعين من العذاب ليستقطب مشاعرهم، ويحوز قلوبهم وعواطفهم فيستجيبوا له.

«ومن ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضله، حتى كأنه ليس من جنسه، تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات كقوله تعالى: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّـلَوَٰتِ وَٱلصَّـلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ البقرة: ٢٣٨ ، وقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ البقرة: ٩٨ ، وقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ آل عمران: ١٠٤»[1].

---

(١) الإيضاح، القزويني، ج١، ص ٣٠٠.

# المساواة

من المعروف في استخدام كل من الإيجاز والإطناب والمساواة، أن المقام يتحكم في ذلك، فكما أن الإطناب والتفصيل له مواضع لا تصلح لغيره، وكذلك الإيجاز، فإن المساواة ترد في الكلام أحياناً ليعادل اللفظ المعنى، ولا يزيد عليه أو ينقص.

ومن المساواة التي وردت في بعض آيات السورة قوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة: ١٣٣، في قوله تعالى: ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ ﴾ مساواة، لأن ألفاظ هذا المعنى لا فضل فيها ولا تقصير»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ البقرة: ٢٣٦، والمساواة في هذه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ ﴾ البقرة: ٢٣٦ .

## التعريف والتنكير

وردت في السورة وجوه كثيرة للتعريف والتنكير ومنها قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ فقد عرف الكتاب بالألف واللام تعظيماً له وتفخيماً لأمره.

---

(١) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش، ج١، دار أبو رشاد، حمص، سوريه، ط٤، ١٩٩٤م.

وقوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ البقرة: ٧ ، نكرت كلمة (عذاب) ولم تعرف لكي تكون رهبته أعظم بعد معرفة نوعه أو حدته، وإبقاؤه مجهول النوع والمستوى والشدة، يدخل في النفوس الفزع، لأنه تهديد بإيقاع ألم من لدن قوي عزيز.

﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ البقرة: ١٣٦، كلمة (أحد) نكره، والنكره الواقعة في سياق النفي تفيد العموم لفظاً، حتى يتنزل المفرد منها بمنزلة الجمع في تناوله الآحاد، ولذلك صح دخول (بين) عليه، وهي لا تكون الا بين شيئين[1].

في آية القصاص تعريف وتنكير : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة: ١٧٩ ، عرفت كلمة (القصاص)، ونكرت كلمة (حياة)، فتنكير (حياة) تدل على التفخيم والتعظيم لا يدرك مدى روعتها، إنها حياة جميلة، وكانت عقوبة القصاص ثمناً لها، حيث انها تضع حداً لكل من تسول له نفسه بارتكاب الجريمة، وتردع النفوس الشريرة من أن تقدم على ذلك، خاصة عندما ترى تلك العقوبة وقد وقعت في غيرها فكان تخويفها فيما كانت تنوي فعله من جرائم بشعة، حياة لمن كان سيقع فريسة لبطشها وعدوانها، وعرفت كلمة (القصاص) لأن الحد معروف لدى الناس جميعاً.

في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٤ ، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ

---

(١) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش، ويقول القزويني في الإيضاح «ربما جعل البعد ذريعة للتعظيم ذهاباً إلى أبعد درجة» .

ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ البقرة:٢٠٧.

في الآيتين السابقتين نوع من أنواع التعريف وهو الاسم الموصول، فعدم الكشف عن هؤلاء الضالين في الآية الأولى، وتصنيفهم في تعريف لا يظهرهم عند إدخالهم في مظلة الاسم الموصول، من شأنه أن يعطيهم فرصة مناسبة للهداية، لأن في تعيين أسمائهم فضيحة تحول دون إعطائهم تلك الفرصة للهداية. أما الآية الثانية فجاءت بالاسم الموصول يخفي أسماء أشخاص بصورة مغايرة، فعدم الكشف عن هؤلاء الأتقياء تشجيع لغيرهم للسير على خطاهم، واقتفاء آثارهم في العمل الصالح.

فقد عقدت الآيتان الكريمتان موازنة بين الفريقين للتنفير من فعل فريق والترغيب من أعمال فريق آخر.

ومن التعريف باللام قولـه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة: ٥، «أفاد اسم الإشارة زيادة الدلالة على المقصود من اختصار المذكورين قبله باستحقاق الهدى من ربهم والفلاح»[(١)].

في قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ في تنكير المسند إليه للنوعية «أي نوع من الحياة مخصوص، وهو الحياة الزائدة كأنه قيل: «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة وإن عاشوا وعاشوا على أن يزدادوا إلى حياتهم في الماضي والحاضر حياة في المستقبل، فإن الإنسان لا يوصف بالحرص على شيء، إلا إذا لم يكن ذلك الشيء موجوداً له حال وصفه بالحرص عليه»[(٢)].

---

(١) الإيضاح، القزويني، ج١، ص ١٢٢،

(٢) الإيضاح، القزويني ، ص ١٢٧،

أما التنكير في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ ، فيحتمل النوعية والتعظيم، أي لكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة لمنعه عما كانوا عليه من قتل جماعة بواحد متى اقتودوا، او نوع من الحياة، وهو الحاصل للمقتول والقاتل بالارتداع عن القتل، للعلم بالاقتصاص، فإن الانسان إذا هم بالقتل تذكر القصاص فارتدع، فسلم صاحبه من القتل، وهو من القود، فتسبب لحياة نفسين »[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ الآية ٢ من سورة البقرة تنكير كلمة (هدى) للتنبيه على ارتفاع شأنه، أي هدى لا يكتنه كنهه»[2].

أما فعلية الجملة واسميتها في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ البقرة: ١٤، فلكل دلالة دلالة.

يقول القزويني: «فعليتها لإفادة التجدد، واسميتها لإفادة الثبوت، فإن من شأن الفعلية أن تدل على التجدد، ومن شأن الإسمية أن تدل على الثبوت أما قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: ٨، في جواب آمنا بالله وباليوم الآخر، فلإخراج ذواتهم من جنس المؤمنين مبالغة في تكذيبهم، ولهذا أطلق قوله (مؤمنين) وأكد نفيه بالياء»[3].

في قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾البقرة: ٢٥٣، فيه إبهام، الغرض منه الإشارة بمن أبهم الكلام من أجله. ولو كشف غموضه وأزيل إبهامه لما

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٢٩.
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٩.
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٩١، ١٩٢.

كان تفخيمه أوقع في القلب مما هو عليه بالإبهام ولما كان أثر التنويه بالمكانة السامية أبلغ في النفس مما جاء في غموضه كما في الآية الكريمة.

ومن التنكير قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ البقرة: ٩٦، فقوله تعالى: (على حياة) أفادت أن هؤلاء لا يحرصون على نمط معين محبب من الحياة، ولا يشترطون نوعاً منها، بل همهم البقاء على قيد الحياة، حتى لو عاشوا أذلاء لا قيمة لهم، لا يهمهم أن تكون حياتهم عزيزة أو أن يكون فيها خنوع وذل، لا يعنيهم إن كانوا أغنياء أو فقراء أو سعداء أو تعساء، إن المطلوب مطلق الحياة، بينما الإنسان الكريم لا يرتضي إلا الحياة العزيزة الكريمة، وكما قال الشاعر:

**عش عزيزاً أو مت وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنود**

ويجسد ذلك قول عنترة بن شداد العبسي:

**لا تسقني ماء الحياة بذلة ... بل فاسقني بالعز كاس الحنظل**

**ماء الحياة بذلة كجهنم ... وجهنم بالعز أطيب منزل**

ويقارن أبو الطيب المتنبي بين الموقفين فيقول:

**فحب الجبان النفس أورده البقا ... وحب الشجاع النفس أورده الحربا**

ومن التنكير ما يبعث في النفس الرهبة والفزع كقوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢٧٩، فكلمة حرب (نكره)، ولكن سر رهبتها في تنكيرها، ان الذي سيشنها إله قادر على كل شيء، ومن هنا كان التنكير نذير

سخط واقع بمن لم يقلع عن الربا لا يعرف نوعه، ولا يدرك كهنه، ولا تؤمن عواقبه، لأنه من القاهر فوق عباده القوي المتعال.

ومن التعريف استخدام أل التعريف للعهد حيناً وللجنس حيناً آخر. ومن أجمل استخداماتها ما استغرقت الجنس كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فكأن التقدير «ذلك هو الكتاب الكامل المتميز باستكماله كل صفات وخصائص جنس الكتب، فهو الكتاب الكامل، فالتعريف هنا لتعظيم القرآن الكريم وتبجيله وأنه سيد الكتب.

## التوكيد:

التوكيد من أهم العوامل لبث الفكرة في نفوس الجماعات، واقرارها في قلوبهم إقراراً ينتهي إلى الإيمان بها. وقيمة التوكيد بدوام تكراره بالألفاظ عينها ما أمكن ذلك، فإن تكرر الشيء رسخ في الأذهان رسوخاً تنتهي بقبوله حقيقة ناصعة»[1].

«وللتكرار تأثير في عقول المستنيرين، وتأثيره أكبر في عقول الجماعات من باب أولى، والسبب في ذلك كون المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الزمن، نسي الواحد منا صاحب التكرار، وانتهى بتصديق المكرر»[2].

ونقرأ آيات الله تعالى فنرى تأكيد صفاته سبحانه فيها، حتى ترسخ في نفوسنا فنؤمن، ونقرأ آيات كثيرة من سورة البقرة، فيها التكرار والتأكيد، ومن ذلك ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ البقرة: ٥٤ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

---

(١) روح الاجتماع، ص ١٣٩، نقل عنه «من بلاغة القرآن» د. أحمد بدوي ص ١٤٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٣.

البقرة: ١٠٩ ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ البقرة: ١٢٨ ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ البقرة: ٢٩ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ البقرة: ١٤٣ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ البقرة: ٤٨ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ البقرة: ١٥٣ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ البقرة: ١٩٩ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة:٢٠٩ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢١٥ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٠٩ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ البقرة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٢٠ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٢٦ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٢٧ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٣١ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ البقرة: ٢٣٣ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٣٥ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ البقرة: ٢٣٧ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ البقرة: ٢٥٩ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٦٠ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ البقرة: ٢٦٧ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٧٣.

لقد ورد تأكيد صفات الله تعالى في الآيات ثمان وعشرين مرة، وإن هذا التأكيد يقرر معاني هذه الصفات في النفس ويؤدي إلى الإيمان.

ومن الآيات التي ورد فيها التأكيد في أخبار تحتاج إلى ذلك لأنها في مجال الشك أو الإنكار ما يأتي:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾، ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ البقرة: ١٢ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ

ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ البقرة: ١١ - ١٤.

لقد أكد الله تعالى اتصافهم بالإفساد والسفاهة عندما أنكروا ذلك. واستخدمت الآيات «ألا» و «إن» ، وتعريف ركني الجملة المؤذن بالقصر، وضمير الفصل، ولما كان إقرارهم للمؤمنين بالإيمان بألسنتهم مبعثاً للشك في نفوس شياطينهم، دفعهم ذلك إلى تأكيدهم لهم الثبات على مبادئهم، وأنهم لا يبغون عنها حولاً [(١)].

ويأتي التوكيد للترغيب كما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ البقرة: ٥٤، فقد أكدت هذه الآية الكريمة بأربعة تأكيدات، وذلك تحبيباً للناس في التوبة، وتشويقاً لهم إلى ذلك ليعودوا إلى الله سبحانه وتعالى.

تدخل إن في الكلام، ففضلاً عن تأكيدها لمعنى الجملة، تربط ما بعدها بما قبلها، قال عبد القاهر الجرجاني: «هل شيء، أبين في الفائدة وأدل على أن ليس سواء دخولها، وألا تدخل من أنك ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها وتأتلف معه، وتتحد به، حتى كأن الكلام قد أفرغا إفراغاً واحداً، وكأن أحدهما قد سبك في الآخر» [(٢)].

---

(١) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، مكتبة ، نهضة مصر، ط٣، ١٩٥٠، القاهرة.

(٢) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٢٤٣،

ومن أمثلة (ألا) التنبيهية التي تفيد التوكيد قوله تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾.

وقد تحدث البلاغيون طويلاً فيما تفيده الباء الزائدة في خبر ما، وليس من تأكيد في الجملة منشؤه ما للباء الزائدة من معان، منها المصاحبة كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ١٤٤.

في التوكيد قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فقوله تعالى ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ بيان توكيد وتحقيق لقوله تعالى (ذلك الكتاب)، وزيادة تثبيت له، وبمنزلة أن تقول هو ذلك الكتاب، فتعيده مرة ثانية لتثبته، وليس يثبت الخبر غير الخبر، ولا شيء يتميز به عنه فيحتاج إلى ضام يضمه إليه، وعاطف يعطفه عليه.

ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، فقوله تعالى ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ تأكيد ثان أبلغ من الأول، لأن من كان في حالة إذا أنذر مثل حالة إذا لم ينذر كان في غاية الجهل، وكان مطبوعاً على قلبه لا محالة، وكذلك قوله عز وجل: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾. إنما قال يخادعون ولم يقل ويخادعون، لأن هذه المخادعة ليست شيئاً غير قولهم آمنا» من غير أن يكونوا مؤمنين فهو إذن كلام أكد به كلام آخر هو في معناه وليس شيئاً سواء»[1].

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ط٢، المكتبة المحمدية، القاهرة.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ البقرة: ١٤.

يقول عبد القاهر: «وذلك لأن معنى قولهم إنا معكم، إنا لم نؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولم نترك اليهودية، وقولهم ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ خبر بهذا المعنى بعينه، لأنه لا فرق بين أن يقولوا: إنا لم نقل ما قلناه من أنا آمنا إلا استهزاء. وبين أن يقولوا إنا لم نخرج من دينكم، وإنا معكم، بل هما في حكم الشيء الواحد، فصار كأنهم قالوا: إنا معكم لم نفارقكم، فكما لا يكون إنا لم نفارقكم) شيئاً غير (إنا معكم)، كذلك لا يكون إنما نحن مستهزئون غيره.

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ الظاهر كما لا يخفى يقتضي أن يعطف على ما قبله من قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾. وذلك أنه ليس بأجنبي منه. ثم إنك تجده قد جاء غير معطوف ، لأمر واجب ألا يعطف، وهو أن قوله ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ حكاية عنهم أنهم قالوا، وليس بخبر من الله تعالى، وقوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ ، خبر من الله تعالى أنه يجازيهم على كفرهم واستهزائهم، وإذا كان كذلك كان العطف ممتنعاً، لاستحالة أن يكون الذي هو خبر من الله تعالى معطوف على ما هو حكاية عنهم، ولا يجاب ذلك أن يخرج من كونه خبراً من الله تعالى إلى كونه حكاية عنهم. وإلى أن يكونوا قد شهدوا على أنفسهم بأنهم مؤاخذون، وأن الله تعالى يعاقبهم عليه، وهذا هو العلة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾، إنما جاء

﴿ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾ مستأنفاً مفتتحاً بألا، لأنه خبر من الله تعالى بأنهم كذلك، والذي قبله من قوله ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ، حكاية عنهم، فلو عطف للزم إدخاله في حكمه، ولصار خبراً من اليهود، وصفاً منهم لأنفسهم بأنهم مفسدون، ولصار كأنه قيل: قالوا إنما نحن مصلحون، وقالوا إنهم هم المفسدون، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾، ولو عطف (إنهم السفهاء) على ما قبله، لكان يكون قد أدخل في الحكاية، ولصار حديثاً منهم عن أنفسهم بأنهم هم السفهاء من بعد أن زعموا أنهم إنما تركوا أن يؤمنوا، لئلا يكونوا من السفهاء، على أن في هذا أمر آخر، وهو أن قوله (أنؤمن) استفهام، ولا يعطف الخبر على الاستفهام.

ثم إن قالوا في الآية جواب شرط، فلو عطف قوله (الله يستهزيء بهم) عليه للزم إدخاله في حكمه من كونه جواباً، وذلك لا يصح»[1].

وما دمنا بصدد الحديث عن التوكيد الذي تستخدمه آيات هذه السورة، فإننا نجده ورد في الأمور الهامة التي تحرص تلك الآيات عل ترسيخها والحث عليها.

ولما كانت آية الدين، وهي أكبر آية في السورة، بل في القرآن الكريم كله قد عرضت أهم ما يتعامل الناس به في شؤون حياتهم مما يتصل بالمال الذي فطر الإنسان على حبه، والذي يتحكم في علاقات البشر، وبسبب معظم الخلافات التي تحدث بينهم. ومن خلال حرص هذه الآيات الكريمة عل صون المجتمع

---

(١ ) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ١٥٨، ١٥٩، ط٢، المكتبة المحمدية، القاهرة.

من الفساد والخلافات، وإحاطته بسياج يحميه، رأيناها وقد اشتملت على كثير من التوكيدات.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ البقرة: ٢٨٢، ورد في هذه الآية أنواع من التوكيدات منها: قوله تعالى: (فاكتبوه) ، أمر صريح بحفظ هذا الدين من الضياع أو النكران، وذلك بتسجيله كتابة، رعاية للحقوق، وصوناً للعلاقات، وتحرزاً من الخطأ والنسيان.

وقوله تعالى: (بدين) توكيد، لأن كلمة تداينتم تغني عن كلمة دين، ولكن الآية أكدت ذلك بذكر الدين لأسباب: [1].

---

(١ ) من بلاغة القرآن، أحمد محمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، ط٣، ١٩٥٠م، القاهرة.

أولها: لعودة الضمير في قوله: (فاكتبوه) إلى كلمة دين، فلو لم تذكر كلمة (بدين) لتكررت واختل حسن النظم.

وثانيها: التعميم لكل أنواع الدين وكمياته، سواء كان قليلاً أم كثيراً. قوله: ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ توكيد على وجوب تحديد الأجل والمدة التي يستحق تسديد الدين خلالها، أو بعد انقضائها، ويكون التحديد بالسنة أو الشهر أو اليوم.

ومن أنواع التأكيدات تحديد الكاتب واشتراط اتصافه بالعدل.

نهى الكتاب القادرين على ذلك ممن تتوفر فيهم العدالة والنزاهة، أن يمتنعوا عن الكتابة.

وقوله تعالى: (فليكتب) تكرار للكتابة لإظهار الحرص عليها.

وزيادة في الحرص على الحق وقطع الذرائع المخلة، أمر المملي أن يراعي الحق في الإملاء لكي لا يبقى حجة أو ذريعة.

ذكرت الآية بالتقوى التي هي ملاك الأمر في قوله تعالى: ﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾، زيادة في أخذ الحيطة، لأن التقوى رقيب يردع الإنسان، ويكبح جماح نزواته. واستخدم كلمة (يبخس) ليدلل بالتجسيد على النهي عنه، لأن المعنى اللغوي للبخس يستعمل للعين العوراء، يقال بخست عينه إذا عورت [١].

## التقديم والتأخير

للتقديم والتأخير أثره الكبير في المعنى، وأسبابه الوجيهه، وغاياته البلاغية الواضحة، ومن أهمها التركيز على المتقدم، وتسليط الأضواء عليه لأهميته،

---

(١) ومن معانيها: الناقص، يقال شراه بثمن بخس، وقد (بخسه) حقه أي نقصه وبابه قطع، ويقال للبيع إذا كان قصداً؛ لا بخس فيه ولا شطط، مختار الصحاح، مادة (بخس).

ومن أمثلته في هذه السورة الكريمة قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ قدم الريب على الجار والمجرور، استعداداً لصورته حتى تتجسد أمام السامع.

﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾البقرة:١٤٣.

فقد تقدمت كلمة شهداء على صلتها «على الناس»، وتأخرت كلمة «شهيداً» على صلتها وهي «عليكم»، وسر التقديم في الحالتين أن الله تعالى قد من عليهم بثبوت كونهم شهداء، وثبوت كونهم مشهوداً لهم بالتزكية، فالجملة الأولى «شهداء على الناس» جعلهم دون غيرهم يحملون عبء الرسالة. وفي الجملة الثانية «عليكم شهيداً»، لقد خصوا دون غيرهم بشهادة رسول الله ﷺ، فكلا العبارتين تخصهم وتبين فضل الله تعالى عليهم، لأن المتقدم دائماً هو الأهم.

﴿ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ البقرة: ١٧٢ ، قدم المفعول به(إياه) على الفعل والفاعل لأن الله تعالى مختص دون غيره بالعباده.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ البقرة: ٤٠ ، وقوله تعالى: ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ البقرة: ٤١ ، تقديم المعبود المستعان على الفعلين فيه: أدبهم مع الله تعالى بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام، وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمى بالحصر، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها.

ففي (أياي فارهبون) وإياي فاتقون كيف تجده في قوة محذراً: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق»[1].

ومن أسرار التقديم والتأخير في ألفاظ السورة: ﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ البقرة: ١٧٨ ، وهذا من باب التشريف بتقديم الذكر على الأنثى.

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٥٨ ، وهو باعتبار الوجوب والتكليف.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ البقرة: ٢٢٢، وهو من باب السببية لأن التوبة سبب للطهارة.

﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ البقرة: ٢٥٥ ، وهو الترقي، فالسنه مقدمة على النوم ويترقى منها إلى النوم.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ ﴾ البقرة:١٨٠، قدم المفعول به على الفاعل، وهو من باب التذكير بالموت الذي يفاجيء الإنسان من حيث لا يحتسب.

وفي قوله: ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ البقرة: ٧٢ ، فتقدم إياه معناه أن الله خص بالعبادة، وفي قوله تعالى: ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ البقرة: ١٤٣.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، تهذيب عبدالمنعم صالح العزي، إصدار وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات العربية المتحدة،

يقول الخطيب القزويني في هذه الآية: «أخرت صلة الشهادة في الأول، وقدمت في الثاني، لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الثاني اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم» ، وكذلك لم يذهب في معنى قول الله تعالى: ﴿ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ البقرة: ٤ ، إلى أنه تعريض بأن الآخرة التي عليها أهل الكتاب فيما يقولون إنه لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وإنه لا تمسهم النار فيها إلا أياماً معدودات، وإن أهل الجنة فيها لا يتلذذون إلابالنسيم والأرواح العبقة، والسماع اللذيذ – ليست بالآخرة، وإيقانهم بمثلها ليس من الإيقان بالتي هي الآخرة عند الله في شيء، أي بالآخرة يوقنون، لا بغيرها كأهل الكتاب»[1].

(١ ) الإيضاح للقزويني، ج١، ص ٢٠٥.

# الأساليب وأغراضها البلاغية

وردت في آيات هذه السورة المباركة أساليب متنوعة منها:

في قوله تعالى: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾البقرة: ٣٠ ، فالاستفهام في هذه الآية غرضه البلاغي التعجب، وقيل هي للاسترشاد والاستبصار... أي أتجعل فيها من يفسد كمن كان فيها من قبل، وقيل أن معناها أنهم استفهموا وتساءلوا إن كان فيهم، أي أنهم سألوا عن أحوال أنفسهم أنجعل فيها مفسداً، ونحن مقيمون على طاعتك، لا نفتر عنها طرفة عين. وقال آخرون هي للإيجاب: والواقع أن كل لفظ استفهام ورد في كتاب الله لا يخلو من أحد الوجوه الستة الآتية:

أ- التوبيخ، ب- التعجب، جـ- التسويه، د- الإيجاب، هـ الأمر، و-التقرير، أما الاستفهام الصريح فلا يقع من الله لأنه سبحانه عالم بكل شيء.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[1].

هذا الأسلوب الخبري في قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ غرضه البلاغي النهي، وهو أبلغ من التصريح به. واستخدام لا النافية التي تحمل في معناها النهي أرفع أسلوباً وأعز مكانة في سلم الفصاحة من استخدام لا الناهية كما نراها في هذا الاستخدام الجميل، فقد استخدمت للإخبار عن بني اسرائيل أولاً، وحملت معنى النهي ثانياً، وهذا من الخصائص المتميزة للنمط الأسلوبي في القرآن الكريم.

---

(١ ) الإيضاح للقزويني، ج١، ص ٢٠٥.

﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ ﴾ البقرة: ٩٤. هذا أسلوب أمر غرضه البلاغي التعجيز وإظهار كذب ادعاءاتهم، لأن التمني لن يكون منهم بسبب جبنهم عن مواجهة الواقع الصريح، وكذبهم على الله، وأن ذلك ليس من شمائلهم المعروفة حيث أن الذي يقدم على تمني الموت مرتبط بالله، ومقرب إليه، موقن بحسن العاقبة.

وعن النبي ﷺ قال:

«لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه، وما بقي على وجه الأرض يهودي»[1].

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ البقرة: ١٨٩ ، هذا أسلوب استطراد وهو دقيق ومتشعب وهو خروج المتكلم إلى غرض من أغراض القول يخيل إليك أنه مستمر فيه، ثم يخرج منه إلى غيره لمناسبة بينهما، ثم يرجع إلى الأول[2].

فقد ذكر عن الأهلة واختلافها أنها مواقيت للحج، وأن مثلهم في السؤال كمثل من يترك باب البيت ويدخل من ظهره، فقد كان ناس من الأنصار إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطاً – أي بستاناً- ولا دارا ولا فسطاطا من باب.

---

(١) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش، المجلد الأول، دار الإرشاد، حمص، سوريه، ط٤ن ١٩٩٤م.

(٢) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش،

فإذا كان من أهل المدر، نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلماً فيه يصعد، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء، فقيل لهم ذلك.

«والفتنة أشد من القتل وهذا من إرسال المثل في هذه الآية، فهي جملة ضيغت صيغة المثل لأن الإخراج من الموطن هو الفتنة التي ما بعدها فتنة. وقيل لبعضهم ما أشد من الموت؟ قال الذي يتمنى معه الموت والإخراج من الوطن بمثابة إخراج الروح من الجسم»، وفي هذا الصدد نذكر قول رسول الله ﷺ عندما خرج من مكة مهاجراً: «إنك أحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت».

﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾البقرة: ١٩٧.

هذا أسلوب نهي، وهو ضرب عجيب منه، فتخصيص الحج بالنهي عن الرفث والفسوق والجدال فيه، يشعر بأن هذه الأعمال في غير الحج، وإن كانت منهياً عنها وقبيحة، واجتنابها متحتم على كل حال، ولكن اجتنابها في الحج أمر فوق الاجتناب، وللنهي في لغتنا العربية فروع وشعاب لا يكاد يسبر لها غور.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ البقرة:٢٤٣ فللاستفهام في هذه الآية أغراض بلاغية منها التقرير ، حيث يسوق الخبر مقرراً مبيناً مفصلاً، ومنها العجب، حيث تستثار أخيلة الناس بما في القصة من إثارة توحي بقدرة الله تعالى، ومنها التشويق وهو في مجال القصة القرآنية، وارد في كثير من السور الأخرى التي تساق في نطاق ترغيب أو ترهيب.

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ البقرة: ٢٦٦

في قوله تعالى: (أيود) استفهام يفيد النفي والإنكار، لأن ذلك لا يتمناه أحد، فهو ينفي بهذا الاستفهام، ويستنكر على أحد أن يحدث له ذلك أو يتمناه، الاستفهام في قوله (أيود) للإنكار والنفي، أما مصب النفي فهو في قوله ﴿ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ ﴾ ، لأنه مناطه ومثابته. وجميل قول ابن عباس فيها «هو مثل لرجل عمل بالطاعات ثم زين له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أحرق أعماله وأطاح بها»[1].

وهكذا نرى أن السورة الكريمة وردت فيها أساليب متنوعة كالتمني والترجي والاستفهام والأمر والنهي.

ورد الاستفهام في السورة على أصل معناه، وهو طلب الفهم ومعرفة المجهول كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾

وقوله تعالى ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾، ولكن الاستفهام يخرج عن أصل ما وضع له، ويخرج إلى دلالات شعورية ، ويكون له أغراضه البلاغية ومن ذلك: التقريع واللوم: نحو:

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ البقرة: ٤٤ ، ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ﴾ البقرة: ٢٨، ومنه الاستبطاء كقوله تعالى:

---

(١) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش، المجلد الأول، دار الإرشاد، حمص ، سوريه، ط٤، ١٩٩٤م،

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ البقرة: ٢١٤ .

ومنه التنبيه والتذكير للغافل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ البقرة:٢٥٨.

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ٢٤٦، ومنه الاستفهام الإنكاري الذي يجيء بالاستغراب والتعجب، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ الذي ورد في الصفحة السابقة.

ومن الاستفهام اللوم التعليمي كقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ البقرة: ٣٣، وهو رد الله تعالى على تساؤل الملائكة عن خلق آدم عليه السلام، يعلمهم أن يذعنوا للمشيئة الإلهية المدبرة في رده على تساؤلهم في الآية السابقة، ويبصرهم بعلمهم المحدود، وعلمه الذي لا حدود له في الآية التي تلتها، ومنه الكشف عن فشل المحاولة، وعدم الجدوى فيها بالدليل كقوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ٧٥، فهذا الاستفهام غرضه البلاغي بيان طبيعة اليهود والتي فطروا عليها، وهي الإصرار على الغواية والضلال، وأن لا جدوى ولا نفع ولا أمل يرجى في هدايتهم إلى الحق.

ومنه للتحقير وكشف العيوب كقوله تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ البقرة: ٨٧ ، ومنه ما جاء للتقرير كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ البقرة: ١٠٦، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ البقرة: ١٠٧.

فأسلوب الأمرالأصل فيه أن يكون لطالب الفعل على سبيل الإيجاب كقوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ البقرة: ١٤٤ ، ولكنه يجيء لغير الإيجاب كثيراً فيكون مثلاً للدعاء كما في قوله: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ البقرة:١٢٦.

وقوله: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ البقرة: ١٢٧، ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ البقرة: ١٢٨، ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ﴾ البقرة: ١٢٩.

وقد وردت في السورة أساليب من القصر فيها دقائق المعاني، وشواهد الإعجاز البلاغي، ومن الأدوات التي استخدمت من أسلوب القصر «إنما» والأصل فيها أن تأتي فيما وضح من الأمور، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ البقرة: ١١، فاليهود يؤكدون في قولهم «إنما نحن مصلحون» أن الإصلاح في أمرهم أمر واضح لا شك فيه فيعمدون إلى التوكيد «بإنما» ولذلك ردت عليهم الآيات الكريمة من لدن عليم خبير بفنون من التوكيد ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ البقرة:١٢،

ألا الاستفتاحية وأن حرف التوكيد، وضمير الفصل (هم) ليدحض ادعاءاتهم، ويكذب افتراءاتهم وقولهم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ البقرة: ١٤، فهم يؤكدون لشياطينهم أنهم يستهزئون بالمؤمنين، ويحاولون طرد أي ريب في ذلك من نفوس شياطينهم بعدم استهزائهم بالمؤمنين. فهم عند حسن ظن أولئك الشياطين بهم في كونهم جادين صادقين في ذلك الاستهزاء بالمؤمنين.

أما التمني وهو طلب حصول أمر محبوب مستحيل الوقوع أو بعيده، وحرفه الذي يستخدم فيه ليت، وقد يخرج عن ذلك فتستعمل «لو» بدلاً من ليت للتمني كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾البقرة:١٦٧، وموضع الفصاحة في غرضها البلاغي، أي استخدام «لو» بدلاً من ليت- أن لو تفيد الامتناع، فهي حرف امتناع لامتناع، وكان استخدامه في هذا الموضع للاعلام بالاستحالة، فهي حدوث ما يتمناه أولئك الذين غرتهم مظاهر القوة والأبهة في أسيادهم، فانجرفوا في تيار الإشراك، وهو عودتهم إلى الحياة الدنيا، وإعطاؤهم فرصة للنيل من أسيادهم وكبرائهم.

أما أسلوب النداء، فمن الجدير بالذكر أن القرآن لم يرد فيه من أدوات النداء سوى «يا» ويكون النداء لطلب إقبال المنادى وشد انتباهه إلى أمر لدى المنادي كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ البقرة: ٢١، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ البقرة: ١٧٢، وقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ البقرة: ١٦٨.

أما حرف النداء «يا» فيلاحظ أنه لم يستخدم في نداء الله سبحانه وتعالى، بل ورد لفظ الجلالة منادى بدون أدوات نداء كقوله تعالى: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا

وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ البقرة: ٢٨٥، ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ البقرة: ٢٨٦، وقوله تعالى ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ البقرة:١٢٦ ، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ البقرة:١٢٧ ، ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ ﴾ البقرة: ١٢٨، ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ البقرة: ١٢٩.

ورد في السورة أسلوب الاستفهام بأدوات متعددة:

**ما** قال تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾ البقرة: ١٣٣.

قال السكاكي: «يسأل بـ (ما) عن الجنس فتقول: ما عندك؟ أي أي أجناس الأشياء عندك؟ وجوابه إنسان أو فرس، أو كتاب أو نحو ذلك، وفي هذه الآية أي من في الوجود تؤثرونه للعبادة؟»[1].

**كم**: قال تعالى: ﴿ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ﴾البقرة: ٢١١.

**أنى**: تستعمل بمعنى كيف، كقوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ البقرة:٢٢٣.

أي بمعنى كيف شئتم، وتستعمل هذه الألفاظ في غير الاستفهام منها:

الاستبطاء كقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ٢١٤.

---

(١ ) مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٢٣٠.

وللتوبيخ والتعجب: كما في قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾البقرة: ٢٨ ، أي كيف تكفرون والحال أنكم عالمون بهذه القصة[1].

والأمر للتعجيز كما في قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ البقرة:٢٣.

وهكذا رأينا هذه التشكيلة الإعجازية من الأساليب المتنوعة الجميلة بأغراضها البلاغية في هذه السورة الكريمة تكمل مسيرة التكامل الإعجازي المتميز في القرآن الكريم، ولتكون في بنائه الإعجازي الخالد درة فريدة، تزين أرجاءه العطرة، وتعبق في أزاهير رياضه الغناء، بنفحها ونشرها.

**الفصل والوصل:**

الفصل والوصل من الأبواب التي ذكرها البلاغيون بشيء من الخاصية، نظراً لدقة مباحثه ودقيق مسائله. وقد خاضوا في المواضع التي تصلح فيها الواو أو لا تصلح، حتى أن بعضهم غالى في الأمر فقال:

«البلاغة معرفة الفصل والوصل»، وكان جل حديثهم حول الجمل التي لا محل لها من الإعراب، لأن موضع الواو في الجمل المعربة واضح جلي، ولأن حكم الجملة الثانية كحكم الجملة الأولى، فتكون مثلها خبراً أو صفة أو حالاً أو مفعولاً.

إن الإشكال يكمن في عطف جملة على جملة أخرى، لا محل لها من الإعراب، فهنا لا ندري أنعطف أم لا نعطف.

وتختلف الواو عن بقية حروف العطف، لأن الفاء مثلاً تفيد الترتيب مع التعقيب، أي دون تراخ، أما «ثم» تفيد الترتيب مع التراخي، و (أو) تفيد

---

(١ ) الإيضاح للقزويني، ج١، ص ٢٣٠.

التردد بين شيئين، فإذا استعملنا هذه الحروف بعطف جملة على جملة كان الأمر واضحاً. أما الواو فإن العطف بها يحتاج إلى إعمال فكر للوصول إلى الرابطة بين الجملتين اللتين ربطتا الواو كقوله تعالى: ، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ البقرة: ١٨٩.

نرى أن أحكام الأهلة، وإتيان البيوت لا تجمعها صلة، وربطت بينهما الواو، وسبب الربط أن جماعة من العرب كانوا يحرمون على أنفسهم دخول الخيام والبيوت إذا أحرموا ، فإن كان من أهل الوبر[١]. خرج من خلف الخيمة أو الخباء، وإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر البيت ليدخل منه.

وتحدثت الآية عن تلك العادة، حينما ذكرت الأهلة لمناسبة الحديث عن عاداتهم في الحج.

«وتفصل الجملتان إذا كان بينهما امتزاج معنوي، كأن ترفع الجملة الثانية ما قد يتوهم في الجملة الأولى من تجوز أو سهو، أو نسيان، كما تجد ذلك في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ، فتعريف جزأي الجملة الأولى، والمجيء باسم الإشارة للبعيد، مؤذن بوصف هذا الكتاب بأنه قد بلغ أسمى درجات الكمال. ولما كان ذلك قد يوهم أنه ثمة مبالغة في هذا الوصف، نفى هذا الوهم، وأتبع ذلك بقوله: (لا ريب فيه)، أي في بلوغه تلك الغاية من الكمال، تأكيداً لما فهم من الجملة الأولى، وأتبعه كذلك بقوله (هدى للمتقين) تأكيداً ثانياً، لأن معنى بلوغ القرآن للكمال، إنما هو كماله في الهداية والإرشاد[٢].

---

(١) من بلاغة القرآن أحمد بدوي نقلاً عن «الطراز»، ج٢، ص ٤٩.

(٢) من بلاغة القرآن، د. احمد احمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، ط٣، ١٩٥٠، القاهره.

وقد أدلى عبد القاهر الجرجاني بدلوه في باب الفصل والوصل مبينا بعض أسرار الآيات في سورة البقرة فقال:

«واعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة، أنت تقول فيه أنه خفي غامض، إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق. وقد قنع الناس فيه بأن يقولوا إذا رأوا جملة قد ترك فيها العطف: إن الكلام قد استؤنف، وقطع عما قبله، لا تطلب أنفسهم منه زيادة على ذلك، وقد غفلوا غفلة شديدة... وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة». وقد لخص عبد القاهر الجرجاني فصل الجمل ووصلها وجعله ثلاثة أضرب:

١- جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤكد، فلا يكون فيها العطف البتة، لشبه العطف فيها -لوعطفت- بعطف الشيء على نفسه.

٢- جملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله، إلا أنه يشاركه في حكم، ويدخل معه في معنى، مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلاً أو مفعولاً أو مضافاً إليه، فيكون حقها العطف مثل: ضربني محمد وسعيد.

٣- وجملة ليست في شيء من الحالين بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الاسم لا يكون منه في شيء، فلا يكون إياه، ولا مشاركا له في معنى، بل هو شيء إن ذكر لم يذكر إلا لأمر ينفرد به، ويكون ذكر الذي قبله، وترك الذكر سواء لعدم التعلق بينه وبينه، وحق هذا ترك العطف البتة»[١].

وقد حوت سورة البقرة نماذج جميلة في هذا النمط الدقيق من مبحث الفصل والوصل كما في قوله تعالى:

---

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، باب الفصل والوصل، ط٢، المكتبه المحمودية، القاهره.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾البقرة:٦- ٧، فقوله تعالى: (لا يؤمنون) تأكيد لقوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾، وقوله تعالى ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ تأكيدٌ ثان أبلغ وأقوى من التأكيد الأول. وقوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ البقرة: ٨ - ٩.

فليست المخادعة شيئاً سوى قولهم آمنا، من غير أن يكونوا مؤمنين.

وكذلك قوله سبحانه ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، فإذا قالوا ذلك أي إذا قالوا إنما نحن مستهزئون استهزأ بهم الله وأمد لهم حبل الطغيان والضلال، فهذا لا يستقيم لأن الجزاء لا يكون بسبب الاستهزاء وفعلهم له وإرادتهم إياه في قولهم (آمنا) ، لا على أنهم حدثوا عن أنفسهم بأنهم مستهزئون، والعطف على (قالوا) يقتضي أن يكون الجزاء على حديثهم عن أنفسهم بالاستهزاء، لا عليه نفسه. وبين ما ذكرناه من أن الجزاء لا ينبغي أن يكون على قصدهم الاستهزاء وفعلهم له على حديثهم عن أنفسهم بأنا مستهزئون ، لأنهم لو كانوا قالوا لكبرائهم: (إنما نحن مستهزئون)، وهم يريدون بذلك دفعهم عن أنفسهم بهذا الكلام، وأن يسلموا من شرهم، وأن يوهموهم أنهم منهم، وإن لم يكونوا كذلك، لكان لا يكون عليهم مؤاخذة فيما قالوا، من حيث المؤاخذة

تكون على اعتقاد الاستهزاء والخديعة في إظهار الإيمان، لا في قولهم إنا استهزأنا عن غير اعتقاد ونية»[١].

وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ في هذه الآية الكريمة استئناف ولا عطف فيها، لأنها ليست حكاية عنهم تابعة لقولهم (إنما نحن مستهزئون)، بل إن قوله تعالى ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ خبر عن الله تعالى، وليس حكاية عنهم. كما أن هذه الآية جاءت رداً وجواباً عنهم. كما أن هذه الآية جاءت رداً وجوابا شافيا لما يدور في نفوس السامعين من تساؤلات عن مصيرهم وجزائهم، فهو جواب عن تلك التساؤلات.

يقول عبد القاهر في هذه الآية:

«هذا وها هنا أمر سوى ما مضى يوجب الاستئناف وترك العطف، وهو أن الحكاية عنهم أنهم قالوا كيت وكيت، تحرك السامعين لأن يعلموا مصير أمرهم، وما يصنع بهم، وتنزل بهم النقمة عاجلاً أم لا تنزل ويمهلون؟. وإذا كان كذلك كان هذا الكلام الذي هو قوله » ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ في معنى ما صدر جواباً عن هذا المعنى وقوعه في أنفس السامعين. وإذا كان مصدره كذلك، كان حقه أن يؤتى به مبتدأ غير معطوف، ليكون في صورته، إذا قيل فإن سألتم قيل لكم: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[٢].

وهكذا رأينا أن للفصل والوصل أهمية خاصة في ميدان البلاغة العربية، فقد قيل للفارسي ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل والوصل[٣] وقد فسره عبد القاهر بقوله:

---

(١ ) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، باب الفصل والوصل، ط٢، المكتبه المحمودية، القاهره.

(٢ ) المصدر نفسه

(٣ ) البيان والتبيين، الجاحظ، ج١/ ٨١.

«إنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة»[1].

وقد نقل أبو هلال العسكري أقوالاً للسلف، تعظم أمر الفصل والوصل، وقد تناول الفراء الوصل والفصل فقال في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ البقرة:٤٩ ، فكلمة (يذبحون) جاءت مرة بالواو، ومتصلة بما قبلها، وأخرى بدون الواو، ومنفصلة عما قبلها.

ويوضح الفراء الفرق بين أسلوبي الفصل والوصل فيقول: «فمعنى الواو أنهم يمسهم العذاب غير التذبيح، كأن قال: يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح، ومعنى طرح الواو كأنه تفسير لصفات العذاب. وإذا كان الخبر من العذاب أو الثواب مجملاً في كلمة، ثم فسرته فاجعله بغير الواو، وإذا كان أوله غير آخره فبالواو».

فالفراء يرى أن الواو تطرح إذا كانت الجملة الثانية بياناً للأولى، وهو ما سماه البلاغيون «كمال الاتصال» ، فالذبح توضيح للعذاب وتفسير له، ولا يقع حرف العطف بين التفسيروالمفسر»[2].

أما قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ البقرة: ٦٧.

يقول الفراء: عندما لاحظ إسقاط الواو من (قال أعوذ بالله) ، وهذا في القرآن كثير بغير الفاء، وذلك لأنه جواب يستغني أوله عن آخره بالوقفة عليه».

---

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ١٥٩، ط١، المكتبه المحمودية، القاهره.

(٢) المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، ص ٣٠٨، دار المعارف، ط٣، ١٩٧٨.

ومن مواضع الفصل والوصل في السورة قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ البقرة: ٢٤٥، فقوله تعالى: يقبض خبر للمبتدأ لفظ الجلالة (الله). وقوله تعالى (يبسط) معطوفة على يقبض. ومشتركة معها في الحكم، إذ القبض والبسط من الله تعالى، ولأن التضاد قائم بين القبض والبسط، ويشتركان في الحكم، والفاعل واحد هو الله تعالى، الهدف منها استحضار عظمة الله وقدرته، ولذلك عطفت الجملة (يبسط) على الجملة (يقبض).

يقول عبد القاهر الجرجاني: «إذا كان المخبر عنه في الجملتين واحداً كقولنا هو يقول ويفعل ويضر وينفع...ازداد معنى الجمع في الواو قوة وظهوراً، وكان الأمر حينئذ صريحاً، وذلك أنك إذا قلت هو يضر وينفع، كنت قد أفدت بالواو أنك أوجبت له الفعلين جميعاً، وجعلته يفعلهما معاً، ولو قلت «يضر وينفع من غير واو لم يجب ذلك بل قد يجوز أن يكون قولك (ينفع) رجوعاً عن قولك (يضر) وإبطالاً له»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾، عطفت «بالوالدين إحساناً»، وهي مصدر يفيد الأمر بالإحسان إلى الوالدين، على جملة سابقة عليها، لا تعبدون وهي متفقة مع الجملة التي عطفت عليها «وبالوالدين إحساناً» معنى، ومختلفة معها لفظاً ومن هنا عطفت عليها لهذا الاتفاق في المعنى.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ البقرة: ٢٤.

---

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ١٦٣، ط٢، المكتبه المحمودية، القاهره.

يرى الزمخشري أن جملة (وبشر) وهي وصف جملة ثواب المؤمنين، معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين، كما جوز أن يكون معطوفاً على قوله (فاتقوا)[١].

وجوز الخطيب أن يكون معطوفاً على محذوف تقديره (فانذرهم بذلك)، وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات[٢].

وقد جاءت الاصطلاحات البلاغية في هذا الباب على ثلاثة أضرب:

كمال الاتصال، وكمال الانفصال أو الانقطاع، وشبه كمال الاتصال.

ونوجز ما سبق من الحديث عن الآيات الكريمة من سورة البقرة من الآية١-٥ فيما يأتي:

- العبارتان (ذلك الكتاب) و(لا ريب فيه)، فيهما فصل، ولم يذكر حرف العطف لأن الجملة الثانية تأكيد للأولى.
- الجملتان (ذلك الكتاب) و(هدى للمتقين)، فصل بينهما أيضاً، لأن الثانية بمثابة توكيد لفظي للأولى، ولذلك فلا حاجة إلى وصل. فكلمة (هدى) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو، المقصود ذلك الكتاب الكامل في الهداية، والتوكيد والمؤكد كالشيء الواحد.
- الجملة (أولئك على هدى من ربهم) للاستئناف البياني، وقد فصل بينها وبين ما قبلها من صفات المؤمنين (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون)، فكأنما إجابة عن تساؤل ما للمتصفين بهذه الصفات، فأجيب (أولئك على هدى).

---

(١) الكشاف، ج١، ٧٨.

(٢) بغية الإصلاح، ج٢/ ١٠٥، نقله عنه المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبدالفتاح لاشين، ص ٣٢٢.

- الجملة (إن الذين كفروا) فصل بينها وبين ما قبلها من آيات، وذلك للاختلاف الظاهر بينها وبين تلك الآيات، فهي تتحدث عن الكافرين وما قبلها تتحدث عن الكتاب.
- الجملة (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) تؤكدها الجملة التي بعدها (لا يؤمنون)، والتوكيد والمؤكد كالشيء الواحد لا يحتاج إلى رابط.
- فصل بين جملة (لا يؤمنون) وجملة (ختم الله على قلوبهم)، لأن الثانية توكيد ثان أبلغ من التوكيد الأول، ولأن من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر كان في غاية الجهل، وكان مطبوعاً على قلبه[1].
- كما فصل بن جملة (يخادعون الله) وجملة (آمنا)، لأن الثانية بمثابة التوكيد المعنوي، فالمخادعة هي نفسها قولهم (آمنا) دون أن يكونوا مؤمنين حقاً.
- فصل بن جملة (الله يستهزىء بهم) وجملة (إنا معكم)، حتى لا تكون (الله يستهزىء بهم) مقول المنافقين، بل هي كلام الله، وفصلت بينها وبين جملة (قالوا)، لأن استهزاء الله بهم دائم، و(قالوا) مقيدة بخلوهم إلى شياطينهم، و(الله يستهزىء بهم) خبر من الله تعالى، وليس حكاية عنهم.

يقول القزويني في (الإيضاح): (يشترط في كون العطف بالواو ونحوه مقبولاً في الجملة كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ وإن لم يقصد

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، باب الفصل والوصل، المكتبه المحمودية، القاهره.، الإيضاح للقزويني، ج١، ص ٢٤٦-٢٦١.

ذلك ترك عطفها عليها كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، لم يعطف (الله يستهزئ بهم) على (إنا معكم)، لأنه لو عطف عليه لكان من مقول المنافقين، وليس منه وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ البقرة: ١١ - ١٢ ، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٣.

وإن لم يقصد ذلك، فإن كان للأولى حكم لم يقصد إعطاؤه للثانية تعين الفصل كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ، لم يعطف (الله يستهزيء) على (قالوا)، لئلا يشاركه في الاختصاص بالظرف المقدم، وهو قوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾، فإن استهزاء الله تعالى بهم – وهو إن خذلهم فخلاهم، ما سولت لهم أنفسهم مستدرجاً إياهم من الآيتين الأخيرتين، فإنهم مفسدون في جميع الأحيان قيل لهم: لا تفسدوا– أولا وسفهاء في جميع الأوقات: قيل لهم آمنوا، أولاً ».

«أما كمال الاتصال منه قوله تعالى ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ لأن قوله إنا معكم معناه الثبات على اليهودية، وقوله إنما نحن مستهزئون رد للإسلام ودفع له لكونه غير معتد به، ودفع نقيض الشيء تأكيد لثباته، ويحتمل الاستئناف أي فما لكم – إن صح أنكم معنا – توافقون أصحاب محمد»؟

## الذكر والحذف:

الحذف البلاغي في سورة البقرة ورد في مواطن كثيرة منها حذف المبتدأ، ويحذف المبتدأ عادة عندما يستغنى عنه بذكر الخبر الذي يتصف بما يشير إلى المبتدأ المحذوف، ويحذف لعلل بينة تستدعي ذلك الحذف، ومن أمثلة حذف المبتدأ:

قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة: ١ - ٢، أولا ترى أن في ذكر الضمير العائد على الكتاب قلقاً لشدة قرب الكتاب الماثل أمام النفس[١].

ومن أمثلة حذف الخبر في السورة قوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ البقرة: ١٨، فقد حذف المبتدأ للاستغناء عنه، وذلك لأن الآية في صدد الحديث عنهم، فالأمر واضح أن الصمم والبكم، من صفاتهم فلا داعي لتكرار ذكرهم، ومن هنا سوغ حذف الخبر، لأن حذفه أوقع في النفس من ذكره..

ومن أمثلة الحذف الجميل قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾ البقرة: ٢٦١ ، والتقدير للمحذوف كمثل باذر حبة أو كمثل زارع حبه، لكن الآية حذفت المضاف، وهو زارع أو باذر، وفي حذفه جمال معنوي، حيث أن الآية الكريمة أرادت أن تنقل التشبيه إلى الصدقة نفسها، وما أعد الله للمنفقين من الجزاء الأوفى.

---

(١ ) من بلاغة القرآن، د. احمد احمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، ص ١٢٠ ،مكتبة نهضة مصر، ط٣، ١٩٥٠، القاهره،

ومن أمثلة الحذف قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: ١٧١. وتقدير المحذوف «ومثل داعي الذين كفروا. فهنا حذف المضاف وهو (داعي)، وذلك تكريماً له، وإعلاء لمكانته، وصوناً لذكره أن يقرن بذلك الذي ينعق بما لا يسمع، وهذا من أسرار الحذف الذي يستشفه المرء عند تمعنه في مواطنه»[1].

ومن المجاز بالحذف قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ البقرة: ١٩، إذ أصله: أو كمثل ذوي صيب، فحذف (ذوي) لدلالة ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم ﴾، وحذف مثل لما دل عليه عطفه على قوله: ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾، إذ لا يخفى أن التشبيه ليس بين صفة المنافقين العجيبة لشأن وذوات ذوي صيب»[2].

ومن الحذف ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ البقرة: ٩٣، أي حب العجل، وقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ البقرة: ١٩٧، أي أوقات الحج[3].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الإيضاح، القزويني، ج١، ص ٤٥٥.

(٣) نكت الانتصار لنقل القرآن، الباقلاني، ص ٧٨، د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر.

## من وجوه الخطاب في سورة البقرة:

سمى أبو الفرج جمال الدين بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي في كتابه المسمى (المدهش)، في الصفحة الثانية الخطاب في القرآن الكريم على خمسة عشر وجهاً، ونكتفي بذكر ما يتعلق بسورة البقرة مقارنة بالأوجه التي سماها، وقياساً على آيات في غير سورة البقرة.

١- خطاب الجنس نحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ﴾ البقرة: ٢١.

٢- خطاب المدح كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ البقرة: ٢٥٤، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم ﴾ البقرة: ٢٦٤، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ ﴾ البقرة: ٢٦٧، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ البقرة: ٢٧٨.

٣- خطاب اللوم والتقريع والتذكير ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ البقرة: ٤٧.

٤- خطاب الكرامة: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ البقرة: ٣٣، ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة: ٣٥.

٥- خطاب التعجيز: ﴿ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ البقرة: ٢٣.

٦- خطاب التلوين وهو الالتفات مثل قوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ البقرة: ٥٧.

## من العموم والخصوص في السورة:

ذكر العلماء أن العام هو لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر، ومن صيغه:

١- كل مبتدأ مثل ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾البقرة:١٤٨.

٢- الذي والتي وتثنيتهما وجمعهما نحو: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٨٢ .

٣- النكرة في سياق النفي والنهي نحو ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة: ٢. ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ البقرة: ٢٣٥، ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾البقرة: ١٩٧.

وقد يذكر العام ويراد به الخاص نحو: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ «قال إبراهيم»[1] ومن خاص آيات السورة ما كان مخصصاً لعموم السنة ومنه: ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ البقرة: ٢٣٨.

(١ ) معترك الاقران، السيوطي، ج١، ص ٢١٠.

## ورود بعض آيات السورة مجملة وبعضها مبيّنة:

من أوجه الإجمال:

١- الإشتراك نحو قوله تعالى: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ البقرة:٢٢٨. فإن القرء موضوع للحيض والطهر.

٢- غرابة اللفظ نحو: ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾ البقرة: ٢٣٢.

وقد يأتي التبيين متصلاً نحو (من الفجر) بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ البقرة: ١٨٧.

وقد يأتي التبيين منفصلاً في آية أخرى نحو: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢٣٠ بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ البقرة: ٣٧.

## من الإفراد والجمع في السورة:

قال الأستاذ السباعي[1]، ومن دقائق القرآن في هذا الباب اختياره إفراد النور للهدى، وجمع الظلمات للضلال، وكلمة (ولي) بالإفراد مضافة إلى المؤمنين، وبالجمع مضافة إلى الكفار في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ البقرة: ٢٥٧.

---

(١) من تاريخ الأدب العربي، ص ٩٥، نقله د. أحمد بدوي في كتابه بلاغة القرآن، ص ١٤٠..

واستخدم القرآن السماء مفردة ومجموعة، ويدلنا عل الفرق بين المعنيين في الاستخدام القرآني في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ البقرة:٢٩ ، فهو يعني بالسماء هذه الجهة المرتفعة التي نشاهدها فوق رؤوسنا، ويعني بالسماوات هذه الكواكب السبعة التي تدور في أفلاكها[1].

إن تفسير د. أحمد بدوي للسماوات بالكواكب السبعة يخالف التفاسير المختلفة، يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: (فسواهن) أي خلق السماء سبعاً، والسماء ههنا اسم جنس فلهذا قال ﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

وقد ورد ذكر السماء مفرداً نحو قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة:٢٢.

وقد ورد المشرق والمغرب مفردين في هذه السورة الكريمة بمعنى جهة الشروق والغروب في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ البقرة:١٧٧.

---

(١) من بلاغة القرآن، احمد أحمد بدوي، ص ١٤٠، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ط٣، ١٩٥٠م.

## احتشاد الفنون المتعددة:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ البقرة: ١٤ ـ ١٥.

لقد وردت في هاتين الآيتين فنون عديدة من فنون البلاغة كما يأتي[١]:

١- المفارقة بين الجمل: فقد خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية، وهي جملة (آمنا)، وخاطبوا شياطينهم بالجملة الاسمية وهي جملة (إنا معكم)، وذلك لأن الجملة الاسمية أثبت من الجملة الفعلية. فإيمانهم قصير المدى، لا يعدو تحريك اللسان، أو مدة التقائهم بالمؤمنين، وركونهم إلى شياطينهم دائم الاستمرار والتجدد، وهو أعلق بنفوسهم، وأكثر ارتباطاً بما رسخ فيها.

٢- المخالفة بين جملة (مستهزئون) وجملة (يستهزيء)، لأن هزء الله بهم متجدد وقتاً بعد وقت ، وحالاً بعد حال، يوقعهم في متاهات الحيرة والارتباك زيادة في التنكيل بهم.

٣- المشاكلة: الاستهزاء ضرب من العبث واللهو، وهما لا يليقان بالله تعالى، وهو منزه عنهما، ولكنه سمى جزاء الاستهزاء، فهي مشاكلة لفظية لا أقل ولا أكثر.

---

(١) إعراب القرآن وبيانه، ج١، محيي الدين الدرويش، بتصرف، دار الإرشاد، حمص، سوريه، ط٤، ١٩٩٤م.

٤- الفصل الواجب في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ لأن في عطفها على شيء من الجمل السابقة مانعاً قوياً، لأنها تدخل حينئذ حيز مقول المنافقين[١]، والحال أن استهزاء الله بهم وخذلانه إياهم ثابتان مستمران، سواء خلوا إلى شياطينهم أم لا، فالجملة مستأنفة على كل حال، لأنها مظنة سؤال ينشأ، فيقال: ما مصيرهم؟ ما عقبى حالهم؟، فيستأنف جواباً على هذا السؤال.

## تصدير الكلام بالضمير:

في قوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾البقرة: ٤٤، فقد صدر الكلام بالضمير زيادة في المبالغة، وتسجيلاً للتبكيت و التوبيخ عليهم، بعد أن عبر عن تركهم فعلهم البر بالنسيان، زيادة في مبالغة الترك، أي فكان البر لا يخالج نفوسهم، ولا يدور لهم في خلد، لأن نسيان الشيء يترتب عليه تركه.

## المبالغة:

في قوله تعالى: ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ البقرة: ٤٨. هذه جملة اسمية عطفت على جمل فعلية قبلها في قوله ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ ، وذلك للمبالغة والدلالة عل الثبات والديمومة، أي أنهم غير منصورين دائماً، ولا عبرة بما يصادفونه من نجاح مؤقت.

## وضع الظاهر موضع المضمر:

في قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ البقرة: ٥٩.

(١) أنظر الفصل والوصل في هذا البحث.

فقد ذكرت الآية ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ في المرة الثانية بدلاً من قوله (عليهم)، فقد وضع الظاهر موضع المضمر زيادة في تقبيح أمرهم، وقد رمقه البحتري في مطلع سينيته فقال:

**صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس**

فلم يقل صنت نفسي عما يدنسها، وإنما وضع نفسه موضع الضمير المضمر لهذا الغرض الجليل، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ البقرة: ١٨١ .

## فن النقد والتهذيب:

في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا ﴾ البقرة: ١٠٤. في هذه الآية الكريمة فن من أجمل فنون البلاغة،وأكثرها استقطاباً للمقاصد السامية والمثل الرفيعة، وهو فن التهذيب أي ترداد النظر فيما يكتبه الكاتب، وينظمه الشاعر، فقد خلصت من الإبهام، ودلت على آداب المخاطبة، ليكون الكلام بريئاً من المطاعن بعيداً عن الملاحن.

## جمع الأماني:

في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ البقرة: ١١١ .

إن هذا الذي تمنوه لا يعدو كونه أمنية واحدة، وهي دخول الجنة، لسر عجيب في صناعة البيان، وهو أنها لشدة تمنيهم لهذه الأمنية، وتأصلها في نفوسهم جمعت، وأنها بمثابة أمان توزعت في كل قلب فلم تترك فراغاً لغيرها.

## فن المراجعة:

وهو أن يحكي المتكلم مراجعة في القول جرت بينه وبين محاور في الحدث، أو بين اثنين غيره، بأوجز عبارة وأبلغ إشارة، وأرشق محاورة، مع عذوبة اللفظ وجزالته وسهولة السبك[1] في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ البقرة:١٢٤.

نجد في هذه الآية من فن المراجعة ما يأتي:

أ- الخبر في قوله: إني جاعلك وهو وعد باستخلافه على الناس.

ب- الاستخبار في ضمن الخبر، إذ الخبر يصير استخباراً بتصدير ما يدل على الاستفهام.

جـ- الأمر في قوله ( ومن ذريتي) ، فإن معناه الطلب لذريته ما وعد به من الاستخلاف، فكأنه قال (رب وافعل ذلك لبعض ذريتي)، وكل طلب أمر ، لكنه إذا كان من الله سبحانه، أوجب حسن الأدب أن يسمى دعاء، ولا يطلق عليه لفظ الأمر، وإن كان أمراً في أصل الوعد.

د- النهي، وهو في ضمن الأمر، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، فكان معناه: لا تحرم بعض ذريتي ذلك.

هـ- الوعد: كما مر في الخبر بموعد الاستخلاف (إني جاعلك).

و- الوعيد: في قوله تعالى ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فإن حاصل ذلك أن الظالمين من ذريتك لا ينالهم استخلافي، وحرمان ذلك غاية الوعيد.

---

(١ ) إعراب القرآن وبيانه، ج١، محيي الدين الدرويش، المجلد الأول، دار الإرشاد، حمص، سوريه، ط٤، ١٩٩٤م.

النهي عن الموت، في قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ البقرة: ١٣٢.

في النهي عن الموت أو الأمر به نكتة بلاغية رائعة، فهو في حد ذاته ليس بمنهي عنه، ولا مأمور به، لأنه من الأمور التي لا تدخل في الإرادة الإنسانية، ولكنه نهى عنه هنا لإظهار أن الموت على خلاف الإسلام، هو موت لا خير فيه، وأنه ليس بموت السعداء، وكذلك الأمر بالموت، تقول وأنت شهيد، لا تريد الأمر بموته ولكن مت الميتة التي تورثك خلود الذكر في الدنيا والجنة الراغدة في الآخرة[1]. وقد تشبث أبو الطيب المتنبي بهذه النكتة فقال:

**عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود**

**الاحتراس:**

في قوله تعالى: ﴿ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ﴾ البقرة: ١٣٣ ، لأنه لو وقف عند كلمة (آبائك) لاختلت صحة المعنى، لأن مطلق الآباء، يتناول من الأب الأدنى إلى آدم، وفي آباء يعقوب عليه السلام، من لا يجب اتباع ملته، فاحترس بذكر البدل عما يرد من المبدل منه، لو كان وقع الاختصار عليه.

(١) إعراب القرآن وبيانه، ج١، محيي الدين الدرويش، المجلد الأول، دار الإرشاد، حمص، سوريه، ط٤، ١٩٩٤م.

## قطع التابع عن المتبوع:

في قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ البقرة: ١٧٧، وضابطه أنه إذا ذكرت صفات المدح أو الذم خولف في الإعراب تفنناً في الكلام، واجتلاباً للانتباه، بأن ما وصف به الموصوف، أو ما أسند إليه من صفات، جدير بأن يستوجب الاهتمام، لأن تغيير المألوف المعتاد يدل على زيادة ترغيب في استماع المذكور، ومزيد اهتمام بشأنه، والآية مثال لقطع التابع عن المتبوع في حال المدح[1].

## اللف والنشر:

في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ البقرة:١٨٥، وهذا الفن يصفه صاحب إعراب القرآن وبيانه، بأنه كأخذة السحر، لا يملك معه البليغ أن يأخذ أو يدع، وقل ما ينتبه له. فقوله (لتكملوا العدة) علة للأمر بمراعاة المدة، وقوله (لتكبروا الله) علة للأمر بالقضاء، وقوله (ولعكم تشكرون) عله للترخيص والتيسير.

واللف والنشر ضربان أولهما أن يكون النشر على ترتيب اللف، وثانيهما أن يكون غير ترتيب اللف، ويعتمد فيه على ذكاء السامع وذوقه.

## المفارقة في الجمل:

في قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ البقرة: ٢١٢، المفارقة تكمن في أنه تعالى عبر عن زينة الحياة الدنيا في نظر الذين كفروا، وعن

---

(١) المصدر نفسه (إعراب القرآن وبيانه) محيي الدين الدرويش.

سخريتهم من المؤمنين بالفعلية إشارة إلى الحدوث، وأن ذلك أمر طاريء لا يلبث أن يزول، أما استعلاء الذين اتقوا عليهم فهو أمر ثابت الديمومة لا يطرأ عليه أي تبديل.

وضع في غير موضع:

١- في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وضع المصدر (هدى) موضوع الوصف المشتق الذي هو هاد، وذلك أوغل في التعبير عن ديمومته واستمراره.

٢- تنزيل العالم منزلة الجاهل في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٠٢، في هذه الآية فن رفيع من فنون البلاغة، وهو تنزيل العالم منزلة الجاهل، فإن صدر الآية يدل على ثبوت العلم، في أنه لا نفع لهم في اشتراء كتب السحر والشعوذة، واختيارها على كتب الله، وآخر الآية ينفي عنهم العلم، فإن لم تدل على امتناع الثاني لامتناع الأول، إلا أن نفي العلم عنهم لأمر خطابي، نظراً إلى أنهم لا

يعلمون على مقتضى العلم، ولكن في ذلك مبالغة من حيث الإشارة إلى علمهم بعدم الثواب، كاف في الإقناع، فكيف العلم بالذم والرداءة.

### المشاكلة:

في قوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾البقرة: ٢٥٧ ، إن الذين كفروا لم يسبق لهم نور حتى يخرجوا منه، فقد يوهم ظاهر الكلام أنه كان لهم نور في الأصل، ثم أخرجوا منه، والمراد نفي النور عنهم أصلاً، فظاهر الكلام أنه كان لهم نور، والمراد في باطنه عدم وجود النور مطلقاً.

### سر جمع الظلمات وإفراد النور:

﴿ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٢٥٧ ، في ذلك سر بلاغي عجيب ينطوي على الإشارة إلى وحدة الحق، وتعدد أنواع الظلمات التي هي الضلالات وما أكثرها، ولأن طريق الحق واضحة المعالم لا لبس فيها، ولا تشعب في مسالكها، أما طريق الضلال فهي ملتبسة على من يسلكها.

### فن التتميم:

قال تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ البقرة: ٢٦٦، وقد جاء التتميم في هذه الآية على النحو التالي:

أ- لما ذكر سبحانه الجنة لم يكتف بذكرها مجردة من كل قيد، لأن الجنة في اللغة لفظ يصدق على كل شجر متكاتف ملتف يستر من يتفيأ بظلاله الوريفة . ومن هذا الشجر ما هو محدود النفع كالأثل والخمط وغيرهما من الأشجار التي لا تصلح إلا للحطب، ومنها ما يتضاعف نفعه، فيؤكل ثمره، وتستخرج منه مواد أخرى نافعة، ثم يكون حطبه صالحاً للوقود، فتمم ذلك النقص بقوله: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ البقرة:٢٦٦، بالبداهة أن هذه الجنة تميزت بأن أشجارها من الصنف الثاني المتضاعف النفع، أي أن احتراق تلك الجنة، ولو كانت تضم الأثل والخمط ونحوهما مما هو محدود النفع يشجي صاحبها، فكيف إذا كانت من نخيل وأعناب؟ ألا يكون الأسف عليها أشد، والشجا باحتراقها أعظم؟

ب- ثم تمم ذلك بذكر الأنهار الجارية للدلالة على ديمومة الخصب، إذا ما الفائدة منها إذا نضبت منها الأمواه؟ ألا يكون مآلها إلى اليبس والذبول؟؟

جـ- لدفع الإيهام الذي يخيل إلى السامعين أن هذه الجنة قد تكون مقتصرة على هذين الضربين من الثمرات وهما: النخيل والأعناب، ثم بقوله: ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ ، أي أنها تجمع جميع أفانين الثمر، فالحسرة إذن على احتراقها أشد، والأسف على فنائها أعم.

د- ولما فرغ من وصف الجنة شرع في وصف الحادث المهلك الذي أدى إلى فناء الجنة بقوله ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ ﴾ يجتاح الأخضر واليابس، ويهلك الحرث والنسل.

هـ- على أن الإعصار مهما يبلغ تأثيره، فإنه ربما كان مؤجل الإهلاك، فدفع هذا الإيهام بقوله: ﴿ فِيهِ نَارٌ ﴾ فأحرقها بعد أن أودى بأشجارها، ولم يكتف بذكر النار لأنها قد تأتي على شيء مما تحرقه، ويبقى بعد ذلك شيء آخر منها، فدفع هذا الإيهام مرة أخرى بذكر الاحتراق.

## نفي الشيء بإيجابه:

﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ البقرة:٢٧٣.

وحدّه أن يثبت الشاعر أو الكاتب شيئاً في ظاهر كلامه، ثم ينفي ما هو من سببه، وهو كثير في القرآن الكريم. أما في هذه الآية، فالمنفي في ظاهر الكلام هو الإلحاف في السؤال، لا نفس السؤال مجازاً، والمنفي في باطن الكلام حقيقة نفس السؤال، إلحافاً كان أو غير إلحاف، وهذا الذي يقتضيه المدح.

من طرائف علم البيان، ومن براعة قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلسه: «لا تثنى فلتاته»[(١)] أي لا تذاع سقطاته، فظاهر هذا اللفظ أنه كان ثم فلتات، غير أنها لا تذاع، وليس المراد ذلك ، ولكن المراد أنه لم يكن فلتات للنبي فتثنى وهذا من أغرب ما توسعت فيه لغتنا العربية.

وزعم ابن الأثير في كتابه «المثل السائر» أنه قليل في الشعر، وأنه لم يسمع منه غير بيت واحد لامريء القيس وهو قوله:

**على لا حب لا يهتدي بمناره إذا ساقه العود الدياني جرجرا**

(١ ) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش.

فقوله «لا يهتدي بمناره» يوهم أن لا منار له يهتدي به، وقد نسي ابن الأثير[1] قول مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني:

**لا يعبق الطيب خديه ومفرقه ولا يمسح عينيه من الكحل**

فإن ظاهر الكلام نفي عبق الطيب ومسح الكحل، والمراد نفي الطيب والكحل مطلقاً، لانهماكه في قيادة الجيوش، وحفظ الثغور، والحراسة على خطوط القتال.

## حسن الختام:

ومن حق سورة البقرة وقد اشتملت على العديد من الأحكام والتشريعات، أن يتناول ختامها شكر المنعم الذي من على الإنسان بالعقل والفكر، ومن حق المنعم عليه، أن يعترف لمن أسدى إليه الآلاء أن يشكرها، ولمن نصب أمامه محاريب الفكر ومجالي الإبداع أن يفكر فيها ويتدبرها، ويشهد لمن أبدعها بالحول والطول، والانفراد بالوحدانية المتجلية على قلوب المؤمنين.

فبالفكر وحده يحيا الإنسان، وبالفكر استدل على وجوده، وما أجمل قوله صلى الله عليه وسلم «السورة التي تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها، فإن تعلمها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة» قيل: وما البطله؟، قال: السحرة، ومعنى كونها فسطاط القرآن، أنها اشتملت على معظم أمور الدين أصولاً وفروعاً، والإرشاد إلى ما فيه سعادة الناس في الدنيا والآخرة.

---

(١) المصدر نفسه..

### تنزيل العالم منزلة الجاهل:

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٠٢.

نلاحظ التوكيد في قوله تعالى ولقد علموا فقد أكد بلقد واللام وهذا التوكيد يقرر علم أهل الكتاب أما قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ فهو دلالة على عدم علمهم.

يقول الخطيب القزويني[1] «ولقد علموا » توكيد باللام وقد على علم أهل الكتاب، وفي قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ نفي العلم عنهم قال الخطيب القزويني«وقد ينزل العالم بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب العلم، فيلقي إليه الخبر ولازم فائدته منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب العلم، فيلقى إليه الخبر كما يلقى إلى الجاهل بأحدهما.

### أسلوب الحكيم:

«وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على غير مراده، تنبيهاً على أنها الأولى بالقصد أو المسائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأولى بحاله أو المهم له»[2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ البقرة: ١٨٩، قالوا ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يتزايد

---

(١ ) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ج١، ص ٩١، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ١٩٨٩م.

(٢ ) تعريف السكاكي كما أورده الإيضاح للخطيب القزويني، ج١، ص ١٦٤.

قليلاً قليلاً حتى يمتليء ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ، وكقوله تعالى﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾البقرة:٢١٥.
سألوا عن بيان ما ينفقوه فأجيبوا ببيان الصرف[١].

**التغليب:**

كما في قوله تعالى ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة:٣٤ ، عد إبليس من الملائكة بحكم التغليب، وكقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة: ٢١، غلب المخاطبون في قوله تعالى﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ على الغائبين في اللفظ، والمعنى على إرادتهما جميعاً، لأن ٠لعل) متعلق بـ (خلقكم) لا بـ (اعبدوا)، وهذا من غوامض التغليب[٢].

**التعريض:**

قال السكاكي: التعريض كما في قوله تعالى:﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة: ١٤٥، وقوله تعالى: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ البقرة: ٢٠٩.
«ووجه حسنه تطلب أسماع المخاطبين الذين هم أعداء المسمع الحق على وجه لا يورثهم مزيد غضب، وهو ترك التصريح بنسبتهم إلى الباطل

---

(١ ) الإيضاح، ج١، ص ١٦٤.
(٢ ) الإيضاح،للقزويني، ص ١٨٢.

ومواجهتهم بذلك، ويعين على قبوله، لكونه أدخل في إمحاض النصح لهم، حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه»[1].

## مناسبة الآيات وارتباطها ببعض:

المناسبة لغة المشاركة والمشابهة والمقاربة[2]، وعلم المناسبة علم أقل فيه العلماء لدقته ووعورة مسالكه، وبعد أسراره، وهو بذلك يشبه في دقته علم الفصل والوصل، إلا أن كلا منهما له ميدانه ومضماره.

ومن أشهر الوالجين عباب هذا العلم الفخر الرازي والشيخ عز الدين بن عبد السلام حيث عرف علم المناسبة بأنه «علم حسن لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام، أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره. فإن وقع على أسباب مختلفة، لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو مما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه».

ومن العلماء الذين تعرضوا لذلك السيوطي حيث قال: «ذكر الآية بعد الأخرى، إما أن يكون ظاهر الارتباط لتعلق الكلام بعضه ببعض، وعدم تمامه في الأولى فواضح.، وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير او الاعتراض أو البدل. وهذا القسم لا كلام فيه وإما أن يظهر الارتباط، بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى، لأنها خلاف النوع المبدوء به، فإما أن تكون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف للشركة في الحكم أولا، فإن كانت معطوفة، فلا بد أن يكون بينهما الجهة الجامعة على ما سبق تقسيمه».

---

(١) الإيضاح للقزويني، ج١، ص ١٨٤.

(٢) مختار الصحاح، مادة (نسب).

وفي سورة البقرة نجد آيات كثيرة تعرضت لهذا الفن مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ البقرة: ٢٤٥، وذلك بسبب وجود التضاد بين القبض والبسط، وهناك آيات كثيرة على شاكلة هذه الآية نجد فيها التضاد في العلاقة كذكر الرحمة بعد العذاب، والرغبة بعد الرهبة، وذكر الوعد والوعيد بعد ذكر الأحكام، ثم ذكر آيات توحيده وتنزيهه كقوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ (٢٤) وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٢٤ - ٢٥ وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ البقرة: ١٢١، وقوله تعالى. ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ وكقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ ﴾... إلى قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ البقرة: ١٩٤ . وكقوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ البقرة: ٩٥ ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾ البقرة: ٢٢٢،

وكقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة:٢٦٢.

ومن المناسبات بين الآيات ما يحتاج إلى إعمال فكر للوقوف على حدوده، وسبر أغوار معانيه كقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ البقرة:١٤٢.

يقول ابن قتيبه: «إن المناسبة بين هذه الآية وما قبلها يحتاج إلى تمعن، فهذه الآية جاءت لتخبر عن أمر مستقبلي متوقع من المشركين، لأنهم سيجدون فرصة مناسبة للطعن في موقف محمد وأتباعه بعد تغيير القبلة، مع أن الآيات السابقة لها تؤكد في أكثر من آية أنه على ملة إبراهيم»[1].

## تنزيل المجهول منزلة المعلوم

وقد ينزل المجهول منزلة المعلوم ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ البقرة: ١١، ادعوا أن كونهم مصلحين ظاهر جلي، ولذلك جاء: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾ البقرة: ١٢، للرد عليهم، مؤكداً بما ترى من جعل الجملة وتعريف الخبر باللام وتوسيط الفصل، والتصدير بحرف التنبيه»[2].

---

(١) مشكل القرآن وغريبه، ابن قتيبة(عبدالله بن مسلم بن قتيبة) الدنيوي المروزي)، ج١، ص ٢٧، ٢٨،، دار المعرفة، بيروات، لبنان.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني،ج١، ص ٢٠٦.

## من أسباب الربط في نظم آيات سورة البقرة:

١- التنظير: وهو أن يتبع النظير بالنظير والشبيه بالشبيه، كقوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٥١ ، وقد جاء ذلك بعد قوله تعالى: ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ البقرة: ١٥٠، فإن نعمة إرسال النبي فيهم معلماً وهادياً، شبيهة بإتمام هذه النعمة بتوجيههم إلى قبلتهم الكعبة، وفي كلا الأمرين خير لهم، ونعمة من الله.

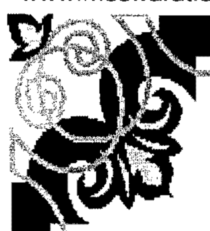
٢- المضادة: كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ البقرة: ٦. فإن أول السورة كان حديثاً عن القرآن، ومن شأنه الهداية للقوم الموصوفين بالإيمان، فلما أكمل وصف المؤمنين تحدث عن الكافرين، وبين الإيمان والكفر تضاد، ومعروف أن التضاد يوضح المعنى، ويشوق النفوس إلى التمعن «وبضدها تتميز الأشياء».

٣- الاستطراد: كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ البقرة: ٨٥، وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ ﴾ البقرة: ٨٤.

٤- حسن التخلص: وهو الانتقال مما ابتدأ به الكلام إلى المقصود بطريقة سهلة دقيقة المعنى، لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما،

وفي آيات السورة الكريمة جمال متميز في حسن التخلص كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾البقرة: ٧٤، ثم تخلص بصفات الحجارة بقوله تعالى منتقلاً إلى معنى جديد: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ٧٤.

والفرق بين التخلص والاستطراد أنك في التخلص تركت ما كنت فيه بالكلية، وأقبلت على ما تخلصت إليه، وفي الاستطراد تمر بذكر الأمر الذي استطرد إليه مروراً سريعاً، وتعود ثانية إلى موضوعك الأول كأنك لم تقصده وإنما كان أمراً عارضاً طارئاً.




# ٣) علم البديع والبراعة
# في تصريف القول
# في سورة البقرة






«لا نستطيع أن ننظر إلى البديع على أنه زخرفة لفظية من كماليات الفصاحة والبلاغة، كما أننا لا يمكن أن نفصل قضايا كل من علمي البيان والمعاني من عملية الإبداع الأدبي كل على حدة ولكن العمل الأدبي يأتي ميلاداً متكاملاً، وبناء متماسكاً، فيؤدي كل علم من هذه العلوم دوره في هذا البناء، دون أن يكون لكل منهما سبق أو أولوية، فالشجرة لكل من جذورها وساقها وأوراقها عمل مميز، يؤدى ضمن عملية النماء والعطاء»[1].

ويعرف القزويني علم البديع بـ «ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً وتقديراً»[2].

نرى في هذه السورة الكريمة أنواعاً من البديع منها:

**المشاكلة**

وهي ذكر الشيء بغير لفظه لوقوعه في صحبته كما عرفها القزويني في الإيضاح، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ البقرة: ١٩٤.

والمراد (فعاقبوه) فعدل عن هذا لأجل المشاكل اللفظية.

**العكس**

وهو تقديم أو تأخير في أجزاء الكلام، ثم تأخير ما قدم وتقديم ما أخر من أجل أن يحقق الدمج والتوافق التام بين شيئين، أو إظهار التنافر والتضاد والاختلاف بينهما، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ البقرة: ١٨٧.

---

(١) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، ص ١٨١، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ط٣، ١٩٥٠م.

(٢) الإيضاح، القزويني، ج١، ص ٤٩٣.

**ومن المحسنات البديعية التي وردت في السورة:**

**المقابلة**

وهي أن يتكرر الطباق في الكلام كما في قوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

فهنا طباق بين (يضل ويهدي)، وبين (يقطعون ويوصل)، وفي قوله: ﴿ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ البقرة: ٣٣، فقد جاء الطباق بين السموات والأرض، وبين تبدون وتكتمون.

**الالتفات:**

في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ البقرة: ٥٤ ، ففي قوله تعالى: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ التفات، لأن السياق الذي يستدعيه المقام تقديره (فتبت عليكم) ، وكذلك الالتفات من الغيبة الى الخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ

﴿ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ البقرة: ٨٣، فقد كان الكلام يدور حول بني إسرائيل في الماضي ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ ثم انتقل إلى خطاب الحاضرين المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم من بني إسرائيل، ﴿ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾. ومن الالتفات قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ البقرة: ١٥٩.

فقوله تعالى: ﴿ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ التفات، لأن السياق يقتضي أن يقول (فلعنهم)، لأن الحديث لله تعالى عن نفسه في قوله: ﴿ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ ولكن الكلام حول إلى الغائب بعد ذلك بقوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ﴾ فالتفت سبحانه إلى الغائب، وذلك لبيان مدى سخطه عليهم، وإمعاناً في إظهار غضبه الشديد عليهم بطردهم من رحمته. ومنه قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ البقرة: ١٧٠. فقوله تعالى (لهم) فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، وذلك ليرسم صورة حية لما هم فيه من جموح ضال، وتقليد مهلك، وغفلة بعيدة عن الحق، بتقليدهم الرتيب لآبائهم الضالين، لا يعون ما يلحق هذا التقليد الأعمى بهم من هلاك.

ومن الالتفات قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ البقرة: ١٧٢.

فقد التفت سبحانه من ضمير المتكلم إلى الغيبة، والسياق تقديره (واشكرونا)، ولكنه التفت الى الغيبة بقوله: (واشكروا لله)، وذلك لتعظيمه سبحانه، وبيان فضله عليهم، وتذكيرهم بمصدر هذه النعم.

وهكذا نرى آيات كثيرة في السورة جاءت على هذا النمط الذي سماه علماء البلاغة (الالتفات)، لأنه انتقال من اسلوب إلى أسلوب، ومن حالة إلى حالة، شدّاً للانتباه، وطرداً للملل والسأم الذي يلحق بالنفس الإنسانية من رتابة السياق. وقد درجت الآيات مراعية لما تعارف العرب عليه من أساليب، لأن القرآن الكريم لا ملل من قراءته، بيد أن أساليبه من أساليب العرب، وهو تحد لهم ولفصاحتهم، بالإضافة إلى ذلك فإن قارئي القرآن، لا يكونون على درجة متساوية من الانفتاح على الآيات، والانغماس في مدلولاتها، والتأثر بأساليبها، نظراً لاختلاف أمزجتهم وعقولهم، وعدم اتساق درجات التقوى في قلوبهم.

وبعد كل ذلك فإن التأويل وفن الكلمة، والأسلوب في القرآن حكمة إلهية لا ندرك كنهها كله، ولا يتأتي لنا أن نسبر أغوارها بصورة كاملة، تكشف كل جوانب دلالاتها»[1].

## الطباق:

ومن الطباق آية القصاص في قوله تعالى:﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة: ١٧٩ ، فالحياة والموت طباق، وذلك للكشف عن المفارقة بين الأضداد، كما قال صاحب اليتيمة متغزلاً:[2].

---

(١) من بلاغة القرآن، د. أحمد أحمد بدوي.

(٢) اليتيمة أو (دعد) اسم القصيدة قيلت في العصر العباسي ونسبها أربعون شاعراً إلى نفسه، ويرجح أنها لأحد الشاعرين أبي العكوك، أو أبي الشيص، ونسبها بعضهم لذي الرمة، أنظر «قطوف من الأدب» أ.د. صالح بيلو.

| | |
|---|---|
| **فالوجه مثل الصبح مبيض** | **والشعر مثل الليل مسود** |
| **ضدان لما استجمعا حسناً** | **والضدّ يظهر حسنه الضدّ** |

وفي قوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ البقرة: ١٨٧ ، فقد تطابق بين الأبيض والأسود. وقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢١٦.

فالطباق بين (خير وشر) ، وبين (تكرهوا وتحبوا).

ومن قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ البقرة: ٢٤٣ ، فالطباق بين (الإماتة والإحياء).

ومن المقابلات قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ البقرة: ٢٧٤ ، فهنا تكرار للطباق بين الليل والنهار، وبين السر والعلانية، ومن المقابلة قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ البقرة: ١٧٥، فقد تكرر الطباق بين (الضلالة والهدى) و (العذاب والمغفرة)، وقوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ البقرة: ٢٨٦، فهنا طباق بين (لها وعليها)، وبين (كسبت واكتسبت)، فجاءت مقابله جميله، لأن الكسب يختص بالخير والاكتساب يختص بالشر، لأن النفس أمارة بالسوء «تشتهي الشر وتجنح إليه

بطبعها بخلاف الخير فإنه يهبط على النفس كما يهبط الفيض من آلاء الله، كما يشرق اليقين في النفس إشراقاً جعل من فلاسفة الإشراق مؤمنين...»[1].

### الترصيع:

وهو فن جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، ويكون الكلام فيه مسجوعاً كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ البقرة: ١٦٦.

ومن قول أبي تمام:

**تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتغب في الله مرتقب**

وقول أبي الطيب المتنبي:

**في تاجه قمر في ثوبه بشر ... في درعه أسد تدمي أظافره**

### التورية:

وفيها معنى قريب غير مقصود، ومعنى بعيد مقصود، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ البقرة: ١٤٣، فالمعنى القريب الظاهر هو التوسط، ويدعم ذلك توسط قبلة المسلمين، أما المعنى البعيد هو الخيار والعدول[2].

والتورية شد لانتباه السامع، وتنشيط لعملية تفكيره، وقد أكثر بعض الشعراء منه كقول لسان الدين بن الخطيب:

**وروى النعمان عن ماء السما ... كيف يروي مالك عن أنس**

---

(١) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش.

(٢) صفوة التفاسير، القسم الأول، محمد علي الصابوني، ص ٨٧.

فالنعمان تورية معناها القريب الملك النعمان بن المنذر، والمعنى البعيد شقائق النعمان الورد الأحمر البري المعروف. وماء السما تورية المعنى القريب غير المراد جد الملك، والمعنى البعيد المراد (المطر).

### أسلوب الحكيم:

وهو الرد على المخاطب بغير ما كان يترقبه ويتوقعه، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد، إشارة إلى أنه كان عليه أن يسأل هذا السؤال، وكان ينبغي عليه أن يقصد هذا المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾البقرة: ٢١٥ ،قال مقاتل بن حيان: هذه الآية في نفقة التطوع، وقال السدي: نسختها الزكاة، وفيه نظر، ومعنى الآية: يسألونك كيف ينفقون. قال ابن عباس ومجاهد، فبين لهم تعالى ذلك فقال: ﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ ﴾ أي اصرفوها في هذه الوجوه كما جاء في الحديث «أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك»، وتلا ميمون بن مهران هذه الآية، ثم قال: هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلاً ولا مزماراً ولا تصاوير الخشب، ولا كسوة الحيطان»[1]، ونرى في هذه الآية أسلوب الحكيم، وهو نوع من أنواع المحسنات البديعية، فقد كان السؤال فيها عن نوع الإنفاق، وجاءت الإجابة عن مستحقيها.

---

(١) تفسير ابن كثير، المجلد الأول.

المشاكلة:

في قوله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾البقرة: ١٣٨، وهو مصدر منتصب عن قوله ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ في الآية ١٣٦، والمعنى تطهير الله، لأن الإيمان يطهر النفوس، والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون هو تطهر لهم، فأمر المسلمين أن يقولوا لهم قولوا آمنا بالله وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا، أو يقول المسلمون صبغنا الله بالإيمان صبغة، ولم يصبغ صبغتكم.

وجيء بلفظ الصبغة للمشاركة، وإن لم يكن قد تقدم لفظ الصبغ لأن قرينة الحال التي هي سبب النزول، من غمس النصارى أولادهم في الماء الأصفر دلت على ذلك[1].

**إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة:**

أ- عبرت آيات في السورة عن طلب الفعل من المخاطبين بوجوه مختلفة منها:

١- الإخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين نحو: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة: ١٨٣.

٢- الإخبار عن المكلف بالفعل المطلوب منه نحو: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٢٨، أي مطلوب منهن أن يتربصن.

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ج١، ص ٤٩٣.

٣- طلب الفعل بصيغة فعل الأمر نحو: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ البقرة: ٢٣٨.

٤- الإخبار عن الفعل بأنه خير نحو: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ البقرة: ٢٢٠.

٥- وصف الفعل وصفاً عنوانياً بأنه بر نحو: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ البقرة: ١٨٩.

٦- ترتيب الوعد والثواب على الفعل نحو: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ البقرة: ٢٤٥.

٧- إيقاع الفعل عقب ترج نحو: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ البقرة: ١٨٥.

ب- وعبرت آيات أخرى عن النهي بالطرق الآتية:

١- النهي بلفظ (لا) نحو: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٤٢.

٢- نفي الحل عنه نحو: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ البقرة: ٢٢٨..

٣- ذكر الفعل مقروناً بالوعيد نحو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ البقرة: ١٥٩.

٤- ذكر الفعل منسوباً إليه الإثم نحو: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ البقرة: ١٨١.

جـ-وعبرت آيات عن إباحة الفعل بالطرق الآتية:

١- التصريح بمادة الحل نحو: ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ ﴾ البقرة: ١٨٧.

٢- الأمر به مع قرينة صارفة عن الطلب نحو: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ ﴾ البقرة:١٨٧.

٣- نفي الإثم عن الفعل نحو: ﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ البقرة: ١٧٣.

وهكذا نجد أن القرآن الكريم يفتن في أداء المعنى الواحد بألفاظ وطرق متعددة، بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار وتكلم وغيبة، وخطاب ومضي وحضور، واستقبال واسمية وفعلية واستفهام ووصف ووعد ووعيد إلى غير ذلك»[(١)].

## تجدد المعاني للعبارة الواحدة:

من خصائص تفرد سورة البقرة أن فيها آيات إذا تلوتها وفهمت معناها، ثم عدت إليها ثانية، فتلوتها اكتشفت جديداً في مدلولها، وفوجئت بمعان جديدة، غابت عنك في المرة الأولى، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ البقرة: ٢١٢، فلو قلت في معناها : أنه سبحانه يرزق من يشاء

(١ ) مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني.

بغير حساب يحاسبه، ولا سائل يسأله، لماذا يبسط الرزق لهؤلاء، ويقدر على هؤلاء أصبت. ولو قلت أنه يرزق بغير تقتير ولا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف النفاذ أصبت، ولو قلت أنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب أصبت، ولو قلت أنه يرزقه بغير معاتبة ومناقشة له على عمله أصبت. ولو قلت: يرزقه رزقاً كثيراً لا يدخل تحت حصر وحساب أصبت.

فعلى الأول أن يكون الكلام تقريراً لقاعدة الأرزاق في الدنيا، وأن نظامها لا يجري على حب ما عند المرزوق من استحقاق بعلمه او عمله، بل تجري وفقاً لمشيئته وحكمته سبحانه في الابتلاء، وفي ذلك ما فيه من التسلية لفقراء المؤمنين، ومن الهضم لنفوس المغرورين من المترفين، وعلى الثاني يكون تنبيهاً على سعة خزائنه، وبسطه يده جل شأنه، وعلى الثالث يكون تلويحاً للمؤمنين بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر ، حتى يبدل عسرهم يسراً، وفقرهم غنى، من حيث لا يظنون. وعلى الرابع والخامس يكون وعداً للصالحين ، إما بدخولهم الجنة بغير حساب، وإما بمضاعفة أجورهم أضعافاً كثيرة لا يحصرها العدد»[1].

«هذا التوالد العجيب للمعاني من مصدر واحد، وهذه القدرة على الصياغة، وأحكام البناء للعبارة الواحدة، بحيث تعطي مدلولات متعددة، وبحيث تتعامل مع جوانب متفرقة من الرؤى الفكرية من غير خروج على حدود المعاني الأصلية، إعجاز نهائي فوق طاقة البشر»[2].

---

(١ ) النبأ العظيم. د. محمد عبدالله دراز، ص ١١٧، دار الثقافة، الدوحة.

(٢) المصدر نفسه.

## الإعجاز في سقوط الإعجاز عند الترجمة:

إن التنسيق العجيب في تراكيب الآيات الكريمة من لدن العظيم الخبير، نمط إعجازي لا يجاريه تنسيق، ولا يحيط به علم، ولا تناله يد فنان، ولا تطاوله عبقرية بليغ، مهما أوتي من زخم الفصاحة والعلم البراعة.

هذا التلاحم الفذ بين العبارات والتراكيب، وهذه العلاقة المثلى بين الكلمة ومدلولاتها، وبين اللفظة والتي تليها، وبين أجزاء الكلام في اللفظ والمعنى، تركيبة ربانية لو أجري التغيير في مواقعها، أو أعيد النظر في معانيها بعد ترجمتها، فإنها تفقد خاصية الإعجاز، وهذا بحد ذاته إعجاز رباني خارق.

يقول مصطفى صادق الرافعي:

«إن من أعجب ما يحقق الإعجاز أن معاني هذا الكتاب لو ألبست ألفاظاً أخرى من نفس العربية، ما جاءت في نمطها وسمتها، والإبلاغ عن ذات المعنى في حكم الترجمة، ولو تولى ذلك أبلغ بلغائها، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. فقد ضاقت اللغة عنده على سعتها، حتى ليس فيها لمعانيه غير ألفاظه بأعيانها وتركيبها، لذلك حرموا ترجمة القرآن إلى اللغات[1]، فإن الترجمة لا تؤديه البتة، ولو هي أدت معانيه كما يفهم أهل عصره، بقي منها ما تفهمه العصور الأخرى. وأشهر وأدق ترجمة للقرآن الكريم في اللغة **الفرنسية ترجمت فيها هذه الآية:** ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ

(١) أنظر إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي، ص ٢٤٨، مطبعة الإستقامة، ط٥، (١٣٧هـ/١٩٥٢م.

﴿ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٨٧. فكانت الترجمة هكذا: «هن بنطلونات لكم وأنتم بنطلونات لهن» يقول الرافعي: «وكيف لعمري يمكن أن يترجم هذه الكتابة الدقيقة وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم للغات العالم كافة»[1].

## إعجاز استخدام الكلمات الطويلة والغريبة:

من إعجاز هذه السورة استخدامها الكلمات الغريبة أو الطويلة ويكون إعجازها في حسنها على غرابتها، لتأكيدها معنى فكري أو واحتوائها على معنى حسي، أو لما لها في النفس من أثر. فقد تكون فيها المقاطع التي تخفف من حدّتها، وتقسم أطوالها. وعلى سبيل المثال وردت كلمة (فلنولينك) في قوله تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ البقرة: ١٤٤.

فإن حركتي الفتح على كل من الحرف الأول والثاني كانتا محطة الانطلاق الأولى التي سهلت النطق بالضمة التي جاءت على حرف النون وهو الحرف الثالث في الكلمة، وسهلت النطق بالفتحة بعدها، وهي التي تلي الضم، وجاءت بعدهما الكسرة ثم الفتحة التي أعادت خط السير الأول للكلمة بعد جنوحه في الوسط (في الضمة والكسرة) ثم أن الشدة على اللام محطة استراحة وكبح لجماح الخروج بالضم والكسر الذي حدث، كما أن الشدّة الثانية على النون محطة أخرى حالت دون اضطراب النطق في حروف الكلمة، فجاءت سلسة، رغم صعوبة النطق بحركتي الضم والكسر.

---

(١) المصدر نفسه، إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي).

وقد درجت الآيات الكريمة في سائر الكلمات المشابهة على هذا النمط الإعجازي في اختيار الموضع المناسب، واحتوائها على أسباب تذليل صعابها، وتسهيل استساغتها.

## إعجاز حشد الحروف والكلمات:

من المعروف لدى النقاد وعلماء اللغة أن تزاحم الحروف بأعداد كبيرة في عبارات متقاربة، تشكل عبئاً على الكاتب لا يستطيع التعامل معه، فيخرج عن طوعه، ويظهر نشازاً لا يألفه السمع، ولا تروقه العين، ومن إعجاز هذه السورة تحديدها لما تعارف الناس عليه عند تنافر الحروف، وتزاحم الألفاظ، وانسياقها في دروب تكون عصية على مبدعيها، شاقة عصا الطاعة على أرباب الأقلام فيها، مهما أوتوا من إبداع ومهارة في التعامل في الألفاظ والمعاني.

وأن مثل هذه الظواهر نراها في مواطن في السورة طيعة ذلولة، سائغة عذبة، منقادة لسياق الآية في خشوع العاجز للمعجز، وهذا بحد ذاته إعجاز رباني خارق للعادة، وخارج عن نطاق طاعة البلغاء والسادة.

يقول الرافعي: «ومن عجيب أمر القرآن ، ومن مظاهر تحديه للبلغاء والفصحاء أنه حشد في آية واحدة من آيات هذه السورة ما يربو على العشرين حرفاً، معظمها متجانس الموسيقا، متكرر متجاور، ورغم ذلك، فقد وظفت بإعجاز وظيفي لا يجارى، وصيغت بتنسيق رباني مثير للدهشة، بحيث لا يمكن تغيير أوضاعها، أو إنقاص أعدادها، أو استبدال أنواعها، ولو حدث ذلك لاضطرب المعنى، وفسد النسج، وركّ الأسلوب، وهذا لا يتأتى لأي بليغ من

البشر[1]. ويتمثل ذلك في قوله تعالى:﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ البقرة:١٩٦ ».

وهذا الحشد الضخم يرافقه نفس الرونق المنسق ونفس الجمال الأخاذ الذي يقف الإنسان حائراً أمامه، فلا يستطيع أن يلحظ جفوة، أو يرقب نبوه، بل انسجام تام في التأليف، وانسياب كامل في الترتيب والتنظيم، ورونق في مائه وعمق في عطائه، فسبحان من دبر هذا النظام ليكون تحدياً معجزاً، سواء أكان مطنباً فيه أو موجزاً.

وقد تألفت كلمات الآية من هذه الحروف التي لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره، أو أقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خللاً بينا، أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي حسن السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة، وبراعة المخرج، وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض، ولرأيت ذلك هجنة في السمع، كالذي تنكره من كل مرئي لم تقع أجزاءه على ترتيبها، ولم تتفق على طبقاتها،وخرج بعضها طولاً، وبعضها عرضاً، وذهب ما بقي منها إلى جهات متناكرة[2].

---

(١) إعجاز القرآن ،مصطفى صادق الرافعي،فصل الحروف وأصواتها، ص ٢١٧، ط٥، (١٣٧هـ/١٩٥٢م.

(٢ ) إعجاز القرآن ،مصطفى صادق الرافعي،مطبعة الاستقامة،ط٥، (١٣٧هـ/١٩٥٢م.

«وما ينطبق على الحروف ينطبق على الكلمات، فقد وردت في هذه السورة ألفاظ هي أطول الكلام عدد حروف ومقاطع، مما يكون مستثقلاً بطبيعة وضعه أو تركيبه، ولكنها بتلك الطريقة التي أومأنا إليها، قد خرجت في نظمه مخرجاً سرياً، فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة، وأعذبها منطقاً، وأخفها تركيباً، إذ تراه قد هيأ لها أسباباً عجيبة من تكرار الحروف، وتنوع الحركات، فلم يجرها في نظمه إلا وقد وجد ذلك فيها كقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فإنها كلمة من تسعة أحرف، وهي ثلاثة مقاطع، وقد تكررت فيها الياء والكاف، وتوسط بين الكافين هذا المد الذي هو سر الفصاحة في الكلمة كلها»[1].

### الفاصلة القرآنية:

الفاصلة القرآنية عبارة اصطلاحية تدل عل الكلمات التي تختم بها الآيات. ولعل التسمية جاءت من قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، وربما جاءت التسمية لأنها علامة اكتمال معنى الآية.

«فمكانة الفاصلة من الآية مكانة القافية من البيت، إذ تصبح الآية لبنة متميزة في بناء هيكل السورة»[2].

وأهمية الفاصلة القرآنية تكمن فيما تحدثه من نغم موسيقي مؤثر في النفس.

وفي آيات كثيرة تنتهي الفاصلة بالنون والميم، قال سيبويه:

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، ط٣، ١٩٥٠م، أخذه عن كتاب «الإتقان» للسيوطي.

«إن العرب إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون، لأنهم أرادوا الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا»، وأهميتها في إتمام المعنى، وعلى سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ البقرة: ١-٧.

فقد جاءت الفاصلة بالياء والنون، أو الواو والنون، لتناسب المضمون فيها.

وقد يبلغ حد الفاصلة القرآنية مبلغاً يوحي بها قبل نطقها، فقد روي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: «أملى علي رسول الله ﷺ هذه الآية: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً»، وهنا قال معاذ بن جبل: «فتبارك الله أحسن الخالقين» فضحك رسول الله ﷺ، فقال له معاذ: «مم ضحكت يا رسول الله» ؟ قال «بها ختمت»[1].

وإن الأذواق السليمة لتدرك وقعها، وإذا ما حاول الإنسان تغييرها، او استبدال الكلمة الفاصلة، كشف ذلك الذوق هذا التغيير، لأنه لا يناسب المكان، وينبو عن الطبع، ويخرج عن سلامة الذوق. حكي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ من سورة البقرة قوله تعالى: (فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم)، ولم يكن يقرأ القرآن، فقال «إن كان هذا كلام

(١) الإتقان، ص ١٤، السيوطي.

الله فلا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه، والآية إنما ختمت بقوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٠٩ ، ومهما تكن مدى صحة الرواية، فإن الأمر الذي لا شك فيه ارتباط الفاصلة الوثيق بمعنى آيتها.

فالفاصلة القرآنية تحمل معنى الآية، وهي رد رباني مناسب على فحواها، فإذا ما تحدثت الآيات عن الضعف في الأيتام أو النساء مثلاً، ووجوب التعامل مع هذا الضعف برفق، أتت بما يذكر القوي من الرجال بقوة تفوق قوتهم، وعزة فوق عزتهم، ونسبتها إلى الله تعالى، تحذيراً من مغبة الظلم والعدوان على حقوق الضعفاء من النساء والأيتام.

كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ البقرة: ٢٢٠.

أما قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.

إن الارتباط واضح بين الفاصلة القرآنية في قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾، وبين معنى هذه الآيات ، فهي بصدد الحديث عن العلم والتعليم، واقتضى الأمر أن يوصف رب العزة بالعلم والحكمة، ولذلك جاءت الفاصلة تناسب المقام بقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.

وفي قولـــه تعـــالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، وفي هـذه الآيـة الكريـمـة دار الحـديث عـن الـدنيا بمـشارقها ومغاربها، وسعتها وانتشارها، وهذا يثير في النفس عدم القدرة على الإحاطـة بكل شيء فيها، ولذلك جاءت الفاصلة القرآنية، لتؤكد علم الله الواسع الذي يحيط بكل شيء فكانت ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

وما الآية الكريمة: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ البقرة: ١٢٧، إن حالة التوسل والـدعاء والمناجـاة التي كان عليها ابراهيم واسماعيل عليهما السلام، تضع النفس أمـام المقـصود بهذا التوسل وذاك الدعاء، وما رد الفعل الربـاني عـلـى ذلـك، إنـه بـلا شـك يـسمع ويبـصر عبـاده المخلـصين، وهـو علـيم بحـالهم، ولا بـد أن دعـاءهم مستجاب، ولذلك جاءت الفاصلة تلخص هذه المعاني، وتختم الآيـة الكريمـة بقوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

وقولـه تعـالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ١٨٠ ــ ١٨١.

يدور الحديث في هذه الآية عن الوصية، والموقف يحتمـل الأمانـة والخيانـة ويحتمل التبديل والتغيير في الوصية، ولذلك فإن الفاصلة تقضي بتحـذير مثـل هؤلاء المتلاعبين بأن الله مطلع على الناس، عليم بما يفعلون، فختمت الفاصلة ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

مما مضى تبين أن الفاصلة القرآنية في الآيات المذكورة من سورة البقرة، كانت مناسبة لمعنى الآية، خاتمة بالتناسق الموسيقي، والتناسب المعنوي لفحوى الآية، ولكن بعض الآيات يغم على المرء إدراك فواصلها، فتأتي على غير توقع، بعيدة عن مناسبة المعنى كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٩، فقد تحدثت الآية عن قدرة الله تعالى، ولهذا يتوقع أن تكون الفاصلة قد ختمت بوصف الله تعالى بالقدرة، ولكنها ختمت بوصفه تعالى بسعة العلم، ولكن مثل هذه الفواصل بحاجة إلى إعمال الذهن، للتنبيه إلى ارتباطها الوثيق نفسه بمعناها. فمن خلق الأرض وكل ما فيها، وخلق سبع سموات طباقاً، يعلم دقائق كل شيء، خلقه وأبدعه، ولذلك جاءت الفاصلة عن العلم، ومثله قوله تعالى: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٢٥، تحدثت الآية عن المؤاخذة والجزاء، لكن الفاصلة ختمت بالغفران والحلم، وهذا نفسه هو عدم المؤاخذة على اللغو في الأيمان.

وقوله تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٦٣. فارتباط الفاصلة التي ختمت بغنى الله عن مثل هذه الصدقات التي أفسدها الأذى، وحليم عن إيقاع العقوبة السريعة بالمتجاوزين الذين يؤذون ويمنون.

وفي بعض الأحيان تتحد الفاصلتان لتشابه الحالين مع اختلاف المسعى، كقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ

ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٨١ – ٨٢.

فالفاصلة الموحدة (هم فيها خالدون)، لكن خلود المؤمنين في الجنة، وخلود من أحاطت به خطيئته في النار.

«وقد تحدث العلماء عما يكون في الآية مما يشير إلى الفاصلة، ويسمون ذلك تصديراً وتوشيحاً، أما التصدير أن تكون اللفظة قد تقدمت مادتها في الآية، ودعوة رد الصدر على العجز، وهذا يدل على التحام الفاصلة بالآية التحاماً تاماً يكون له وقع مؤثر في النفس يؤدي إلى تقبله»[1].

ومن إعجاز الفاصلة القرآنية في هذه السورة الكريمة، أن بعض الآيات أحياناً توحي بفاصلة ما، وتهيء تبعاً لمعناها باختيار خاص متوقع، بينما يفاجأ القاريء بغيرها لأنها أولى بالمعنى، وألصق بمضمون الآية مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ البقرة: ٦٧، فالمقام يتحدث عن الاستهزاء، وهذا ما يتجه إليه التوقع في اختيار الفاصلة، ولكنها جاءت في التنفير من الجهل بالاستعاذة بالله منه. وسر ذلك أن الاستهزاء بالناس سفه وجهل، ولا يقدم عليه عاقل حصيف الرأي، سوي السلوك. ولمن أراد المزيد فسيجد في كتاب الإتقان ما يريد[2].

ومن الجدير بالذكر أن الفاصلة القرآنية قد تدق دلالتها، وترهف إشارتها، حتى تستحيل سراً عجيباً، تكشف عن فك رمزها عن إعجاز يأخذ بالألباب،

---

(١) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، ص٨٥،مكتبة نهضة مصر ،ط٣، ١٩٥٠م، القاهره.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج٢، ص ٩٩.

ويبهر النفوس فيما اختير من فواصل قرآنية لها جذور في عمق الواقع النفسي للموصوف، ففي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١١ ـ ١٣.

فقد وردت في الفاصلة الأولى (لا يشعرون)، ووردت في الفاصلة الثانية (لا يعلمون) لسر عجيب، وذلك أن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين هم على الحق، وأما المنافقون فهم على الباطل، هو أمر يحتاج إلى بعد نظر، واستدلال حتى يكتسب الناظر العلم والمعرفة، وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى اشتجار الفتنة، واستبحار الفساد في الأرض، فأمر دنيوي مبني على العادات، وهو معلوم عند الناس، بل هو بمثابة المحسوس عندهم، فلذلك قال فيه: (لا يشعرون)، وأيضاً فإنه لما ذكر السفه في الآية الثانية، وهو جهل مطبق كان ذكر العلم أكثر ملاءمة، فقال: لا يعلمون)، وهذا من الدقائق في إعجاز هذه السورة الكريمة»[١].

ومهما يكن من أمر فإن الفاصلة القرآنية في سورة البقرة تحمل سمات الآيات التي ختمتها بعمق معانيها، واتساع مراميها مع تلك الأنغام الموسيقية المكملة لتلك المعاني، والمرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفحوى دلالاتها، والمترجمة للجانب الوجداني لتناسقها مع المضمون العقلي، وانسيابها وأثرها في الشعور الوجداني.

(١) من بلاغة القرآن، أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر،ط٣، ١٩٥٠م، القاهره.

## الإعجاز النغمي في السورة

إننا نجد في هذه السورة الكريمة إيقاعاً موسيقياً متميزاً، والحاناً منغمة متنوعة، وسر ذلك تميز السورة بطولها، وتنوع القضايا المطروحة في ثنايا آياتها. على أن الأمر لا يخرج عن ذلك لأن كل سور القرآن وآياته تشترك في الإعجاز النغمي، يقول الدكتور صبحي الصالح: «إن هذا القرآن – في كل سورة فيه وآية، وفي كل مقطع منه وفقرة، وفي كل مشهد منه وقصة، وفي كل مطلع منه وختام- يمتاز بأسلوب إيقاعي غني بالموسيقا، مملوء نغماً، حتى ليكون من الخطأ الشديد أن نفاضل فيه بين سورة وأخرى، أو نوازن بين مقطع ومقطع، لأننا حين نومئ إلى تفرد سورة منه بنسق خاص، إنما نقرر ظاهرة أسلوبية بارزة نؤيدها بالدليل، وندعمها بالشاهد،، مؤكدين أن القرار نسيج واحد في بلاغته وسحر بيانه، إلا أنه متنوع تنوع موسيقا الوجود في أنغامه وألحانه»[1]. على أن أوتار الحروف والعبارات كلما كثرت بعثت ألحاناً أكثر تنوعاً، وإيقاعاً أشمل أنغاماً، وهذا ما نراه في هذه السورة المباركة.

ذهب الأستاذ سيد قطب إلى أن سحر القرآن وإعجازه النغمي، جمعه بين الشعر والنثر، يقول رحمه الله: «فقد أعفي التعبير من قيود القافية الموحدة، والتفعيلات التامة، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة، وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقا الداخلية، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل، والتقفية التي تغني عن القوافي، وضم ذلك إلى الخصائص التي ذكرناها، فشأى النثر والنظم معاً»[2].

---

(١) مباحث في علوم القرآن، ص ٣٣٤، صبحي الصالح، الدار السعودية للنشر، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م.

(٢) التصوير الفني في القرآن، ص ٨٦، مباحث في علوم القرآن، ص ٣٣٤.

إن التوافق العام بين الموسيقا الخارجية المتمثلة في تناسق الحروف والفواصل والكلمات، وما تحدثه من جرس موسيقي متجانس، وبين الموسيقا الداخلية، وهو الانسجام التام والتوافق المطلق في الدلالات الايحائية، والنبرات الصوتية، والانفعالات العاطفية، لتسجل أعظم برهان على الإعجاز النغمي في السورة.

لنأخذ قوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة: ١٣٣، نلحظ التناسق العجيب الذي يلائم الموقف: إنها ساعة حزينة يجتمع فيها الأبناء حول أبيهم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، كآية وفاء منهم له، وإخلاص لله من يعقوب عليه السلام، وهو على فراش الموت، حيث يتثبت من استمرار استقامة المسيرة من بعده في قوله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾، لقد أعطت الكلمة (بعدي) إيحاء بالحزن على فراقهم، واستنهاضاً لهممهم كي يتابعوا النهج القويم، فكان الرد مشحوناً بنفس العاطفة، عاطفة الولاء والحب والوفاء، المتمثلة في تأكيدهم أنهم على نهجه القويم سائرون، ونلحظ الولاء الأبوي في تكرار حرف الكاف الذي ورد في كلمتي(إلهك، آبائك)، فكأن تناسق النغم في هذا الحرف طمأنة لوالدهم، حيث أكد أنهم ملتصقون به بعد موته، باتباعهم سبيل الرشاد الذي سار عليه، وكأني بحرف الهاء الذي يصلح لتفريغ الأحزان والتأوهات، كأني به ساهم في بناء بنية هذا النغم المعجز، ليسجل أحزانهم ولهفتهم على والدهم وهو في سكرات الموت، وإيراد (ابراهيم واسماعيل واسحق) تأكيد للمضمون الأول، بمواصلة السير في الطريق القويم، فهؤلاء جميعاً يستمدون

من مصدر واحد، يجمع شملهم، وينصهرون في تيار الوحدانية مذعنين، ثم انظر عبارة «ونحن له مسلمون» وكأن الأمر جاء رداً موجزاً، فيه الجواب الشافي لجلب الراحة النفسية لوالد عزيز، يوشك أن يغادرهم إلى الدار الآخرة، هذا التوافق والانسجام بين الألفاظ والعبارات بجرسها الموسيقي وانسيابها تبعا للموقف، واختيار حرف السين في كلمة (مسلمون)، وهي من أحرف الهمس المريحة، ليختموا بها ردهم، كل هذا الانسجام في الدلالات الفكرية والايحائية، والأنغام الحسية، والتداعيات العاطفية، رسم إعجازاً فريداً في النغم القرآني في هذه الآية الكريمة.

## الزائد والغريب من الألفاظ:

هو الكلام الذي قل تداوله بين الأدباء، وندر استعماله على ألسنة الفصحاء، مقارنة بغيره من الكلام الدارج، واللفظ المستعمل، فقد كان العرب في عصر نزول القرآن يمضون إلى كبار الصحابة- يسألونهم عن معاني هذه الألفاظ الغريبة، فيجيبونهم، ويقربون لهم هذه المعاني مستشهدين بأبيات الشعر. وقد تفاوت الصحابة في ثقافتهم الأدبية، وقضية الكلام الغريب قضية نسبيه، فما يكون غريباً في عصر لا يكون غريباً في عصر آخر. واللغة كالكائن الحي تتجدد خلاياها فيها، وتموت أخرى، والألفاظ كذلك يموت بعضها ويهمل فلا يستعمل مع الأيام، ويصبح غريباً، ويتجدد بعضها لاستعماله، فما كان متداولاً مألوفاً مستعملاً بالأمس، يصبح غريباً وحشياً في الغد، ولا غرابة أن نعرف أن الكلام الذي نسميه غريباً في أيامنا كان مألوفاً في الماضي. وقد جاء القرآن متحدياً فصحاء الجاهلية، وبلغاء العرب بلغة مألوفة هي لغتهم، ومستوى فصيح هو مستواهم، ولو لم يكن كذلك لما جن به جنونهم ونزل من

عقلائهم وفصحائهم منزلة أخذ عليهم عقولهم ووجدانهم، ووقعوا في حيص بيص، وتفرقوا شيعاً في تصنيف فصاحته ووصف بلاغته.

إن مراعاة مقتضى الحال في الحديث الشريف أمر مألوف مثله مثل القرآن الكريم، حيث كان يراعي في الناس أحوالهم، فلكل مقام مقال، ولكل حادثة حديث.

يقول الجاحظ في كلام الرسول عليه السلام: «كلامه ﷺ هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجل عن **الصنعة**، ونزه عن التكلف...واستخدم المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي...»[1].

ومما يدل عل أن القرآن يؤثر رفعة الأسلوب، أنه يفضل أحياناً كلمة أدبية على أخرى شائعة عامية. نرى ذلك في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٧٣، مكان إلحاحاً)، وربما كان لتكرير الحاءين في الكلمة أثر في الإعراض عنها، وليس ذلك بعجيب على كتاب نزل ليتحدى أبلغ البلغاء، مستخدماً أرقى وأجمل الألفاظ.

وقد أحصى النحاة ما ورد في القرآن الكريم من كلمات زائدة، وحصروها في خمسة عشر لفظاً، ومنها ما ورد في سورة البقرة مثل (إذ):

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ البقرة: ٣٠. ومن كل ذلك يبدو أن ما يمكن عده زائداً، إنما هو

(١) البيان والتبيين، الجاحظ.

حروف نادرة، جيء بها لأغراض بلاغية، ويظهر من تسميتها زائدة، معناه أنها لا يرتبط بها حكم إعرابي، لا أنها لم تؤد في الجملة معنى.

وورد في القرآن الكريم ما يبدو للنظرة السريعه أنه يمكن الاستغناء عنه، ولكن التأمل يبين عن دقة بارعة في اختيار هذا التعبير ، وبلاغة مؤثرة في المجيء به[1].

من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ البقرة: ٧٩.

تأمل قوله تعالى(بأيديهم) يصور بها جريمة الافتراء، ويرسم بها مقدار اجترائهم على الله، ويؤكد ارتكابهم الجريمة بأنفسهم، وإن شئت فأسقط تلك الكلمة، وانظر أي فراغ تتركه إذا سقطت.

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ البقرة: ١٩، فالمطر لا يكون إلا من السماء، ولكن التعبير عن المطر بالصيب، ووصفه بأنه من السماء، ويصوره لك كأنما هو حجارة مصوبة، تهبط من هذا العلو الشاهق، فتصيب بأذاها هذا السائر الضال.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾البقرة: ١٩٦، فقوله (تلك عشرة)، مع أن الثلاثة والسبعة معلوم أن مجموعها عشرة، رفع لتوهم أنها ثلاثة في الحج أو سبعة في الرجوع لاحتمال التردد. وقوله (كاملة) مع أن العشرة لو نقصت لم تكن عشرة، فائدته أن

---

(١ ) من بلاغة القرآن،د. أحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر،ط٣، ١٩٥٠م، القاهره، بتصرف.

التفريق ما نقص أجرها، بل أجرها كامل، كما لو كانت متوالية، فنسب الكمال إليها لكمال أجرها[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾البقرة: ٢٦، فكلمة (فوق) الواردة في هذه الآية بمعنى(دون) كان أبو عبيدة رحمه الله يذهب إلى أن فوق هاهنا بمعنى دون على ما بينت في المشكل، وهو مبين في باب المقلوب... ومن المقلوب أن يوصف الشيء بضد صفته للتطير والتفاؤل كقولهم للديغ سليم، تطيراً من السقم وتفاؤلاً بالسلامة، وللعطشان ناهل، أي سينهل، يعنون يروى وللفلاة مفازة أي منجاة وهي مهلكة... وللغراب أعور لحدة بصره.... ومن ذلك أن يسمى المتضادان باسم واحد والأصل واحد، فيقال للصبح صريم ولليل صريم، قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ أي سوداء كالليل، لأن الليل ينصرم عن النهار، والنهار ينصرم عن الليل»[2].

## من أسرار التعبير عن الحروف في السورة:

إن من أسرار التعبير بالحروف في السورة ما يسجل براعة الاستخدام، ودقة النظم في سياق الكلمات في الآيات الكريمة، بحيث يرتبط إبدال حرف مكان حرف بتغيير في المعنى، ووصف دقيق لحالة جديدة، وعلى سبيل المثال قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ البقرة: ٥٨،

(١ ) الأقصى القريب، ص ٨، نقله كتاب «من بلاغة القرآن»د. أحمد أحمد بدوي.

(٢ ) مشكل القرآن وغريبه، ابن قتيبة (عبدالله بن مسلم بن قتيبه الدنيوي المروزي)، ج١، ص٧، ٨، دار المعرفة ، بيروت، لبنان.

ففي قوله تعالى: (فكلوا) عطف بالفاء بينما نرى العطف بالواو في سورة الأعراف «... اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم...» مع أن الحديث واحد يدور حول المناسبة عينها في سورة البقرة. وفي تفسير أسرار هذا الاستخدام يقول الخطيب الإسكافي: «الأصل أن كل فعل عطف عليه ما تعلق به تعلق الجواب بالابتداء، وكان الأول مع الثاني بمعنى الشرط والجزاء، فالأصل فيه عطف الثاني على الأول بالفاء ومنه ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ...﴾ فإن وجود الأكل متعلق بالدخول، موصل إلى الأكل، فالأكل وجوده معلق بوجوده، بخلاف ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ﴾ لأن السكنى مقام مع طول لبث، والأكل لا يختص وجوده بوجوده، لأن من يدخل بستاناً قد يأكل منه مجتازاً، فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجواب بالابتداء، وجب العطف بالواو دون الفاء»[1].

وهكذا جاء استخدام الفاء التي هي للترتيب والتعقيب، بدون تراخ في المقام الذي يصلح لسرعة دخول القرية لاجتيازها. فإن وجود الأكل متعلق بدخول القرية، بينما العطف بالواو جاء في مقام السكنى والإقامة التي تطول، وأن الأكل يتعلق بالدخول تعلق الجواب بالابتداء كما في الآية الأولى، وشبيه باللبث وطول الإقامة في الآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ ، ولذلك عطف بالواو للسبب نفسه.

ومن أسرار الحروف في قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ البقرة: ٧١، تدخل كاد على الفعل لإفادة معنى المقاربة في الخبر، فإذا دخل عليها النفي لم

---

(١ ) درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الإسكافي.

تكن إلا لنفي الخبر، كأنك قلت إذا أخرج يده لا يكاد يراها، فكاد هذه إذا استعملت بلفظ الإيجاب كان الفعل غير واقع، وإذا اقترن بها حرف النفي كان الفعل بعدها قد وقع، ولهذا اختلف في معنى الكيدودة هنا، وعلى كل حال هي صورة مجسدة لطبائع اليهود، ولجوئهم إلى اللجاج والمكابرة، فقد فعلوا الذبح بعد لجاج طويل، وتعنت ما عليه مزيد[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة: ٢٦٢، فالحرف ((ثم)) في الآية الذي هو للتراخي، كان موضع خلاف بين الباحثين، فالزمخشري يحمله على أنه تفاوت في الرتبة، وقال بعضهم بل لتفاوت الزمن، لأن المن والأذى يعقب الإنفاق، وإن الآية بصدد الحديث عن المنفقين الذين تقبل نفقاتهم، فينعمون بالخروج من دائرة الخوف، ويشملهم الله برحمته، وهذا لا يكون إلا بشروط معينة، وهي أن لا تشوب أنفاقهم شائبة المن والأذى. فالحرف (ثم) هنا كأنه تعلق بهذا الشرط، وارتبط بمن وصل إلى هذه المنزلة من المنفقين الذي يتفاوتون في مرابتهم، ودرجات صفاء ذلك الانفاق من تلك الشوائب المشار إليها. وأظن أن هذا أقرب إلى دلالة الحرف، وهذا ما ذهب إليه الزمخشري رحمه الله.

ومن أسرار الحروف في السورة في قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة: ٥، فالسالك على هذا الصراط على هدى وهو حق، والله عز وجل هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى ، فكان في أداة (على) على هذا المعنى ما ليس في أداة

---

(١ ) إعراب القرآن وبيانه، ج١، محيي الدين الدرويش.

(إلى)، فالحرف (على) يفيد الاستعلاء والعلو بالحق والهدى مع ثباته عليه إليه، فكان في الإتيان بأداة (على) ما يدل على علوه وثبوته واستقامته، وهذا بخلاف الضلال والريب، فإنه يؤتى فيه بأداة (في) الدالة على انغماس صاحبه وتدسسه فيه كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ البقرة:١٥.

وقد ورد لفظ (المعرفة) ولفظ (العلم) والعلم أوسع إطلاقاً ، فلفظ العلم، كقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٣، وقوله تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٣٠، وقوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ البقرة: ٣٢، ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ البقرة: ٣٣، ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٤٢ ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ البقرة: ٦٠، ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٧٥ ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ البقرة: ٧٨٧٨ ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٨٠ ﴿ بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ البقرة: ١٢٠ ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ البقرة: ١٢٩أ ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ البقرة: ١٢٩.

أما لفظ المعرفة فهو دون لفظ العلم لأن الله سبحانه اختاره لنفسه[1].
فوصف نفسه بأنه عالم وعلام وعليم «والله سميع عليم» «إنك أنت السميع العليم» وإنما جاء لفظ (المعرفة) في السورة في مؤمني أهل الكتاب خاصة فقال تعالى: «فلما جاءهم ما عرفواا كفروا به فلعنة الله على الكافرين»، «والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم»، فالمعرفة هنا مجرد الإحاطة والدراية بأمر محدود تبعاً لما يصدر عن ذلك الشيء، فمعرفة الوالدين سلوك أبنائهم وطباعهم، كحبهم وبغضهم، وما يغضبهم وما يفرحهم وما إلى ذلك نتيجة ارتباطهم بهم وهذا لا يتعدى العلم بخفايا نفوسهم على سبيل المثال.

ومنه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ البقرة: ٧٤. إن الحرف (ثم) في هذه الآية الكريمة لا يدل على التراخي الزمني وإنما يدل على معنى دقيق يؤديه هذا الحرف دون غيره كقول جعفر بن علبة الحارثي:

**لا يكشف الغماء إلا ابن حرة ... يرى غمرات الموت ثم يخوضها**
**تقاسمهم أسيافنا شر قسمة ... ففينا غواشيها وفيهم صدورها**

فلو فسر معنى هذا الحرف على التراخي لكان هجاء مقذعاً، بدلاً من تمجيد الشجاعة والإشادة بالبطولة والجرأة والإقدام، لأن التراخي يحمل معنى التردد الذي هو مظهر من مظاهر الخوف والضعف، ولكن الشاعر أراد عكس ذلك، فهو يسجل الشجاعة والبسالة، وأقحم الحرف (ثم) ليؤدي هذا الغرض، فهو يخوض المعارك بعد رؤية أهوالها، وإدراك أخطارها، وهو يقتحم غمراتها رغم علمه الأكيد بقسوتها وضنكها، وهذا من سمات الشجاع

(١) تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، ص ٩٧.

الجسور، وكذلك الآية: فقد قست قلوب القوم بعد رؤيتهم للحجة البالغة والدليل القاطع، ورغم ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة، ولم يقل (أقسى) رغم أنه فعل يأتي منه التفضيل، فهو ثلاثي إلا أن العبارة قصدت وصف القسوة بالشدة، فهي ليست أقسى من الحجارة، وإنما هي أشد قسوة، ولم يقل (أقسى) رغم أنه فعل يأتي منه التفضيل، فهو ثلاثي إلا أن العبارة قصدت وصف القسوة بالشدة، فهي ليست أقسى من الحجارة ، وإنما هي أشد قسوة، وفي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ البقرة: ٥، فالحرف (على) جاء قوي الدلالة بحيث جعل العبارة استعارة تمثيلية، فحال إثبات المؤمن على نهج الحق كحال المتمكن فوق ظهر جواده، ومستعل عليه. يقول د. محمد أبو موسى عن الحرف (على) في هذه الآية:

«لأنها لقوة دلالتها وخصوبتها في التركيب استطاعت أن تشير إشارة واضحة إلى باقي الصورة، وتبعثها واضحة في النفس والخيال»[1].

(١) التصوير البياني ، د. محمد ابو موسى ، ص ٢٣٦.

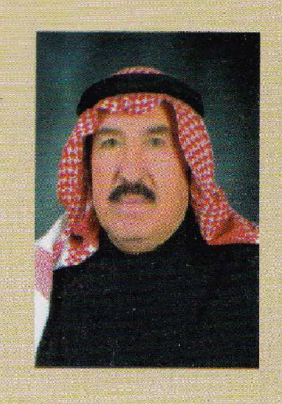
# المصادر والمراجع

١- المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف ١٩٧٨، ط٣، بتصرف.
٢- معاني القرآن، الفراء، ج٢/ ٥٩١.
٣- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني.
٤- المنجد في اللغة والأعلام.
٥- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تصحيح وشرح أحمد مصطفى المراغي، ط٢، المكتبة المحمودية، القاهرة.
٦- من بلاغة القرآن، د.أحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ط٣، ١٩٥٠م، القاهرة.
٧- معاني القرآن ج١/ ١٤، الفراء.
٨- تفسير الطبري، ج١، دار المعارف.
٩- الكامل، المبرد، ج٢.
١٠- الخصائص، ابن جني، ج٣.
١١- المعاني في ضوء أساليب القرآن، د.عبد الفتاح لاشين.
١٢- تمهيد في البيان العربي، د.طه حسين.
١٣- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تصحيح وشرح وتعليق سيد محمد رشيد رضا.
١٤- إعراب القرآن وبيانه، ج١، محيي الدين درويش، دار ابن كثير، ط٤، ١٩٩٤م.
١٥- الإيضاح، القزويني، ج٢.
١٦- التصوير البياني، د.محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة.
١٧- الكشاف، الزمخشري، ج١.
١٨- مختار الصحاح، الجوهري.

١٩- عيار الشعر، ابن طباطبا.
٢٠- تفسير ابن كثير، ج١، دار القلم، بيروت، لبنان.
٢١- البرهان في علوم القرآن، الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله)، ج٢، المكتبة العصرية.
٢٢- مباحث في علوم القرآن، د.صبحي الصالح.
٢٣- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
٢٤- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار المعارف بمصر، ط٨، القاهرة.
٢٥- الاتقان، ج٢، السيوطي، ط مصطفى الباب الحلبي ١٩٥١م، ١٣٧٠هـ.

# الفهرس



## نبذة عن حياة المؤلف

ولد في بروقين - قضاء نابلس عام ١٩٤١ ودرس المرحلة لابتدائية والإعدادية والثانوية في بروقين، كفر الديك، سلفيت على التوالي حصل على ليسانس الآداب قسم اللغة العربية من جامعة الإسكندرية فرع بيروت العربية عام ١٩٧١، ثم حصل على درجة الماجستير في الدراسات الأدبية والنقدية من جامعة أم درمان الإسلامية بالخرطوم عام ١٩٩٨، ثم حصل على درجة الدكتوراة من جامعة النيلين - جامعة القاهرة - فرع الخرطوم سابقاً - عام ٢٠٠٢.

عمل معلماً للغة العربية في الكويت من سنة ١٩٦٣ - سنة ١٩٦٥ ثم انتقل إلى دولة الإمارات العربية المتحدة - ساحل عمان سابقاً وعمل فيها مدرساً منذ عام ١٩٦٥ - ٢٠٠١

**نشاطاته :**

عضو جمعية المعلمين - دولة الإمارات.

عضو جمعية حماية اللغة العربية - لجنة الدراسات والأبحاث - الإمارات

رئيس تحرير مجلة «العروبة» الشعرية الطلابية - الإمارات

محكم لمسابقات الشعر في مجلة المعلم بجمعية المعلمين - الإمارات

**مؤلفاته :**

- ديوان شعر «غزل السراب»
- القوة في التدبير - سلسلة قصص الأطفال
- سورة البقرة - دراسة تحليلية بلاغية
- سالم بن علي العويس - حياته وشعره
- الإعجاز البلاغي في سورة البقرة
- الإعجاز العلمي في سورة البقرة
- الجن بين العقل والنقل.
- في رحاب الله
- خواطر

١ - قرأت لك كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه)

